في انتظار معجزة

وقصص أُخرى

عدنان زيدان المرزوقي

العبيكان
Obëkan

obeikandl.com

ⓗ مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المرزوقي، عدنان زيدان

في انتظار معجزة./ عدنان زيدان المرزوقي. - الرياض، ١٤٢٩هـ

١٤٨ ص؛ ١٤ × ٢١سم

ردمك: ٣-٤٢٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- الأخلاق الإسلامية ٢- الصدقات أ- العنوان

ديوي ٢، ٢١٢ ١٤٢٩/١٠٣٧

رقم الإيداع: ١٤٢٩/١٠٣٧

ردمك: ٣-٤٢٤-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(الأعراف من الآية: ١٧٦)

obeikandi.com

obeikandl.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إليه يصعد الكلم الطيب	٧
قارئي الكريم.. السلام عليكم	٩
القصة الأولى: في انتظار معجزة	١١
القصة الثانية: الرغيف القاتل	٧١
القصة الثالثة: سكين الحقد	٨٧
القصة الرابعة: سر الحفرة	٩٧
القصة الخامسة: الشجرة والتابوت	١١٣
القصة السادسة: البحث عن المتعة	١٢٧
القصة السابعة: كابوس ماسوني	١٣٥
قبل أن نفترق	١٤٧

obeikandi.com

obeikandl.com

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ . . . ﴾

(فاطر: ١٠)

أردت لكَلِمِ هذه القصَص السـبع أن يسـكب فـي العقل دفقة من قطر الحقيقة الصافي، ويسـقي ذلك الجزء الذابل من وريقاته، ويخرجه من تيه الظنون إلى إشراقة اليقين..

فإن أفلحت في قصدي فلله وحده الفضل والمِنَّةُ..

عدنان

obeikandl.com

obeikandl.com

قارئي الكريم ..

السلام عليكم ..

هــذه القصص الســبع التي تحظــى وريقاتها القليلــة في هذه اللحظــة بكــرم ضيافتك، وتصفحــك لكلمها، هــي قصص تجارب إنسانية حقيقية، وليست من نسج الخيال الأدبي.

إنَّ جميع شــخصيات هذه القصص السبع حقيقية من لحم ودم ومشــاعر، منهم من غادر هذه الحياة الدنيا، وسبقنا إلى دار البقاء، ومنهم من أرجو أن يمد الله في عمره، وأن يمتعه بنعمة العافية.

بعض شــخصيات هذه القصص أعرفه حــق المعرفة، وبعضهم الآخر علمت تفاصيل قصته ممن أثق في روايته.

واسمح لي قارئي الكريم، أن أرفع جرعة الفضول لديك مباشرة، وأخبرك، بأن وراء شخصية من شخصيات هذه القصص السبع سراً غريباً سأرفع لك الستار عن حقيقته في اللحظة المناسبة!

obeikandl.com

obeikandl.com

القصة الأولى

في انتظار معجزة

حين يمتحن الله تعالى إنساناً بمرض لا حيلة له في رده أو اتقائه، وتحزبه الشدة، ثـم يرفع الطـب يديه عاجزاً مستسـلماً، وتتعطل الأسـباب التي أُمـر أن يأخذ بها في العلاج..

ترى هل تسـتطيع قصـة قصيرة أن تكون بارقـة أمل في نفسـه القلقة، وهل يمكـن لكلمها أن يسـتحيل وصفـة دواء ناجعة تبلسـم جراح قلبه المنكسر، وترسم على ثغره ابتسامة أمل ورضا؟

obeikandl.com

ألغى بصره المشـوب بالقلق كل شيء داخل العيادة التي بدت أمام ناظريـه بالرغم من رحابتها أضيق من تابوت خشـبي مغلق. وتناوبت نظراتـه التحديق تارة إلى ورقـة التقرير الطبي التي أخرجها الطبيب من داخل ظرف أبيض، وأمسـك بها بين أنامله، وتارة أخرى إلى وجه الطبيب محاولاً بصمت استكشـاف نتيجة التقريـر من خلال قراءته الخاصة لتعابير وجهه وهو يجول بنظراته بين كلمات التقرير العلمية.

الانتظار قطعة من العذاب المحرق، واللحظة حكم وفصل، والأمر يتأرجح في نفسـه بين الشك واليقين، وبين اليأس والرجاء.. ونتيجة التقرير لم تكن بالنسبة له أمراً عادياً، إنها ومن منظار بشري محض، أشبه بحكم قاطع.. حكم بالحياة أو الموت!

أبعد أسـتاذه في الكلية لدقائق بصره عن ورقة التقرير، وتناول سـماعة الهاتف الذي قطع رنين جرسه المتواصل سكون الحركة في العيـادة، وأخرج المريـض من دوامة الأفكار التي اسـتغرقته تماماً.. وحاول اسـتعادة صورٍ انتقاها من أحداث الأسـبوع الأخير.. ويا له من أسبوع عاصف في حياته ناء بحمل ساعاته البطيئة التي تطاولت حتى شعر بها وكأنها دهر بحاله.. الأمر بدأ باحتمال واه.. ولشدة ما يخشـى رجحان كفة هذا الاحتمال، وأن تصبح له الغلبة في النهاية، هذا الاحتمال بدأ على غير قصد منه عندما لمس بأصابعه تحت إبطه الأيسـر فجأة كتلاً صغيرة واحدتها بحجم حبة البن تقريباً، ملمسها يميل إلى القسـاوة، ويمكن تحريكها تحت الجلد بسهولة دون أن تثير

ألمـــاً. وأدرك منذ الوهلة الأولى أنها (عقد لمفية متضخمة). وتتضخم هذه العقد في ســياق العديد من الأمراض الســليمة العابرة، وكذلك في حال غزوها من قبل الأمراض الخبيثة (الســرطان). والمواصفات السابقة أثارت في نفسه بعض المخاوف والشكوك فكثيراً ما تتظاهر الأمراض الخبيثة في مراحلها الأولى بمثل هذه العقد.

وبعــد تــردد دام أيامــاً عدة بســبب انشــغاله فــي التحضير للامتحانات الأخيرة والإعداد لرسالة التخرج، وصل إلى قناعة أنه ما قيمــة النجاح في تلك الامتحانات والحصول على الإجازة في الطب، إذا كانــت تلك العقــد المتضخمة تخفي وراءها مرضــاً خبيثاً يجعل حياته برمتها مهددة بالخطر؛ لذا عقد العزم على دخول المستشــفى لإجــراء الفحوص والتحريــات اللازمة للوقوف علــى حقيقة الأمر، ومعرفة الســبب الكامن وراء هذه الضخامة في العقد اللمفية. وقام الطبيب المختص - وهو أســتاذه في الكلية - بمعاينته بصورة دقيقة شــاملة وباهتمام بالغ، متحرياً مختلف نواحي بدنه، باحثاً عن العقد اللمفية المتضخمة، جاساً الطحال وبقية أحشاء البطن.. وبعد فراغه مــن المعاينة وقف وقد بدت عليه علامات التأثر وقال له بشــيء من الإشفاق والألم:

- لابــد مــن أخذ (خزعــة) من نســيج تلك العقــد المتضخمة لدراستها تحت ضوء المجهر، ويبقى لنتيجة الخزعة القول الفصل في التشخيص النهائي لهذه الحالة.

انتهى الطبيب من مكالمته، وثبت نظارته على عينيه، ركز انتباهه على ملامح وجه مريضه، كان يتوقع أن يراه مشتتاً كغيوم الخريف، مقطب الملامح، عابس القسمات، كتلة قلق من لحم ودم، إذ كان قد رأى ذلك في حالات كثيرة مماثلة، فالذي يحدث أمامه أمر غير عادي.. نفس إنسانية تتلاشى أحلامها وهي في ميعة الشباب المتوقد.. طبيب في مقتبل العمر ينتظر صدور الحكم عليه بمرض خطير قاتل.. أمر غير عادي حتى بالنسبة لطبيب مختص في أمراض الدم، لم يتبين أي تغيير خطير في ملامح المريض.. وبدا له هادئاً متماسكاً بالرغم من مسحة الحزن الصامت التي ظللت وجهه.

اعتدل الطبيب في جلسته وراء مكتبه، وضع التقرير الطبي أمامه على الطاولة، أزاح نظارته عن عينيه، ضم حاجبيه مفكراً، وهرش مقدمة رأسه، زمَّ شفتيه، ونقر بأصابعه على الطاولة، وظل صامتاً بعض الوقت كأنه في حالة (شرود ذهني!).

ولما بدا للمريض أن صمت الطبيب قد طال، وأن نظرات أستاذه المشفقة تسوق إليه النتيجة المرعبة قبل لسانه، وتنعى إليه بصمت أحلامه الوردية، لم يجد بداً من مبادرة الطبيب بالسؤال بصوت خافت ونبرة هادئة:

- عفواً دكتور.. هل تدعو النتيجة إلى الطمأنينة..؟

كان الطبيب يدرك من تجاربه السابقة أن وقع كلماته على أغلب المرضى في حالة كهذه، هي بمثابة الخطوة الأولى في العلاج من

الجانب النفسـي، وأشبه ببناء جسر من الأمل بينه وبين المريض، ولو كان جسراً واهياً ينقذ من خلاله ما يمكن إنقاذه من البقية الباقية من تجلد المريض على معركة مع مرض خبيث، وربما كانت معركة طويلة ومريرة. وعادة يؤثر الطبيب أن يحتفظ لنفسه بسر المرض، ويخفي حقيقة التشخيص عن المريض في حال إصابته بأحد الأمراض الخطيرة. ولكن هل يجدي صمت الطبيب في حالته هذه؟ وهل يستطيع إنفاذ هذه القاعدة، وإبقاء حقيقة التشخيص طي الكتمان عن مريضه الذي لم يبق بينه وبين التخرج من كلية الطب إلا عبور قنطرة الامتحانات الأخيرة وهو يعلم بحكم دراسته لعلم الأمراض الكثير عن أعراض الأمراض القاتلة عادة ومظاهرها وتطوراتها؟ لاشك أن الأمر بالنسبة له مكشوف من بدايته وحتى المحطة الأخيرة منه؛ لذلك قرر الطبيب أن يكون حديثه مع مريضه بمنتهى الصراحة والوضوح، حديث زميل لزميل، يبسط أمامه الحقيقة كاملة ولو اجترع بعدها مرارة هذه الحقيقة.

هز الطبيب رأسه مرات متتالية، وغشيت وجهه سحابة من ضيق، تنحنح، ثم قال له ببطء وهو يرتب كلماته بهدوء:

- للأسف الشديد.. نتيجة الخزعة مخبرياً جاءت على عكس ما كنا نتمنى، ورجحت الشكوك التي أثارها التشخيص السريري..

حاول المريض هدهدة الرعدة الشديدة التي اعترت جسده، والتجلد على المكروه الذي حاق به، بعد أن وجد حياته فجأة، وفي

obeikandl.com

لحظة قاسـية، هدفاً سهلاً في مركز دائرة التسديد لسلاح داء قتال نزل بسـاحته بعد معركة نشـبت بغتة.. إذ الطلقـة الآن داخل بيت النـار.. والسـبابة معقوفة على الزناد.. ولا يـدري هل تضع المعركة أوزارها وتنقضي فجأة كما بـدأت..؟! وعندها يغدو مثله كمثل ذلك الصياد الذي أطبقت جفنيه سـنة من النوم بعد أن ألقى شـباكه في الماء وهو يمنِّي نفسه بصيد وفير، فهاج البحر وماج، وحين أفاق وجد المركب فجأة في وسط دوامة خطرة، هكذا رغماً عنه!

مسـح حبات العرق التي غزت جبهته، وسـأل أستاذه بنبرة فيها شيء من التماسك:

- إن لـم يكن لديك مانع دكتور.. هل أسـتطيع بالضبط معرفة نتيجة دراسة الخزعة..؟

- نعم.. بـكل تأكيد يا بني.. فالأمر يتعلق بحياتك، ومن حقك معرفة كل التفاصيل.

قالهـا الطبيب وفي صوته شـيء مـن التأثر وهـو يناوله ورقة التقرير..!

انطلق لاهثاً بـكل خلية من خلايا أعصابه البصرية والحسـية المسـتقبلة يستكشـف كلمات التقرير.. تقرير المصير، وسـرعان ما قفـز اللون الأحمر إلى ناظريه منـذراً بالخطر، فقد جرت العادة أن تكتب النتائج المرضية الخطيرة باللون الأحمر، وتجاوز بلمحة مقدمة

التقرير وتوقف عند جملة حمراء مرعبة، قرأها بصوت متهدج شبه مسموع:

- لمفوما لاهودجكن ذات خلايا لمفاوية ناضجة، نموذج عُقيدي..

وانبسطت داخل تلافيف دماغه كل أبعاد مرضه الخبيث، وتطوراته، طوراً بعد طور.. وأخذ في حسبانه ما سيؤول إليه أمره في نهاية المطاف.. وياله من تصور مخيف!

- ما العمل الآن يا أستاذ.. هل دفع بي المرض إلى مستودع الودائع.. وديعة مؤقتة إلى حين..؟!.

سأل أستاذه وقد غصب عضلات وجهه على ابتسامة باهتة مغلفة بشيء يشبه الدعابة، مذكراً له بجملته الشهيرة التي طالما رددها على مسامع طلابه في محاضراته، واصفاً المصاب بهذا النوع من المرض الخطير بأنه: (وديعة مؤقتة إلى حين..!).

- لا.. لن نستسلم للمرض بسهولة، بل سنبذل كل الإمكانات المتاحة لدينا الآن للعلاج.. وأفضِّل اللجوء فور انتهائك من الامتحانات إلى الخطوة الثانية..

قالها الطبيب وهو يشد على يد مريضه مودعاً، وتابع كلامه مواسياً له، ومحاولاً صب دفقة من الأمل في نفسه:

obeikandi.com

- وعلـــى كلٍ أنت تعلم أن الطب في تقدم دائم، والأبحاث الطبية تأتينا كل يوم بجديد .. ومن يدري..!

ولكن عبارة (الخطوة الثانية) وعلى عكس ما رمى إليه الطبيب، جــاءت تحمل في طياتها ما يدل دلالة واضحة على أن أســتاذه كان واثقاً كل الثقة من التشخيص الذي توصل إليه. فالخطوة الثانية التي عناها بالقول، هي ما يســمى في مصطلــح الطب الجراحي (عملية فتــح البطن الاســتقصائي). وهـــي عملية جراحيــة خطيرة تجرى للمصاب بمرض خبيث، تتضمن استئصال الطحال، وأخذ خزعة من الكبد، واستئصال بعض العقد اللمفية من جوف البطن، وذلك بقصد إرسالها جميعاً إلى مخبر التشريح المرضي لدراستها مجهرياً. والغاية من ذلك هي معرفة مدى انتشــار المرض الخبيث في البدن، وتحديد الدرجة التي وصل إليها، لتوضع بعد ذلك خطة المعالجة المناسبة[١].

(١) أحداث هذه القصة بدأت في منتصف عام ١٩٧٧.
وقد تطورت أساليب التشخيص والعلاج لمثل هذه الأمراض في الوقت الراهن.

openkandi.com

٢

خرج من العيادة مشتت الذهن، وعقله لا يكف عن التفكير، والأفكار أشبه بنغمات شيطانية وهي تنبعث من مزمار مشعوذٍ هندي تستجلب من وكرها أفعى رقطاء مخيفة؛ فكل فكرة تستجلب سؤالاً أو احتمالاً مخيفاً لا يلبث أن يتكامل ويصبح نذير شؤم لمستقبل مجهول.

وما برح رجع صوت تلك الجمل المرعبة يتردد في رأسه كعواء ذئب جائع يبحث عن فريسته في ليلة مظلمة: (لمفوما لاهودجكن.. وديعة مؤقتة إلى حين.. عملية فتح البطن الاستقصائي..!).

- آه.. ما عساي الآن أصنع..؟

همس بحرقة وقد أحس أن شيئاً مؤلماً اجتاح فؤاده وداهم حياته الهادئة فجأة، وواجه نفسه بحقيقة تثير مخاوفها إلى حد الزلزلة.

كان يعي تماماً أنه بدأ الدوران في فلك لحظة حاسمة في حياته.. اللحظة التي يختبر فيها معدن إيمانه على محك نائبة من نوائب الدهر.. لحظة الصراع الخفي الذي يدور في أعماقه بين وساوس اليأس، وتقوى النفس..

وقلب النظر في سلسلة من الفروض والأسئلة التي وجدها تلح على نفسه، لعله بالإجابة عنها يلوح له مخرجٌ من مصيبته الطارئة..

أيسلم ساقيه للريح طلباً للنجاة؟ لكن إلى أين؟ وهل يرجئ الفرار أجلاً حان؟ أم يندب حظه العاثر بتكسر ثم يضع رأسه الذي غبره بالتراب بين كفيه ويذرف دمعاً مراً ويعترف بأن كل شيء انتهى، وأنه ميت لا محالة؟ ولكن هل يستطيع الصراخ والجزع أن ينفس عن أساه؟ أم ينساق مع خيالات جامحة تُغرق لحظات حياته الباقية في لجج من الحسرة، وتملؤها بأشباح الموت المرعبة، وتوهمها أنها بين لحظة وأخرى معرضة للانتقال من وجود إلى عدم، ومن ضياء إلى ظلام، ومن إيناس البشر إلى وحشة القبر..؟

كان على يقين أن تغيير ما اعتراه من مكروه فوق ما يطيق، وأنه لا جدوى من أن يفقد رشده ويشتد قلقه بإزاء أمر خارج عن نطاق إرادته، وأن ما اطلع القدر عليه من محنة بما لا دخل له فيه لا مكان فيه لندم أو ملامة..

كان يدرك أن التسليم بما حدث، وإعداد النفس لتقبل الحقيقة هو الخطوة الأولى في التغلب على مصيبته، وأن طمأنينة النفس لا تتأتى إلا مع التسليم بأسوأ الفروض، وأن أسوأ ما يقلقه قد وقع بالفعل، ولابد من انتزاع ما تبقى له بعد هذا الافتراض من عناصر حياة تكفي، أو معاني عزاء تشفي.

وكان يدرك أن مناوشة الأفكار المؤلمة لنفسه القلقة وتلوينها بلون رمادي في حالة كحالته أمر طبيعي وفطري.. لأن المحن تعكر أيضاً صفو النفس المطمئنة، ثم لا تلبث أن تروق بعد حين ويزول عنها ما

تكره، وتؤوب من جديد إلى صفائها، مثلها مثل نبع الماء لا يزال صافياً رائقاً حتى يسقط فيه حجر موحل، فيتغير لونه، وترتسم على سطحه دوائر من الماء العكــر، ولكنه ما يلبث أن يعود إلى صفائه بعد حين.. إنما الأمر غير الطبيعي هو اســتبداد الجــزع بالنفس القلقة تماماً، واستسلامها طوعاً للقنوط، وإحساسها أنه لا علاج له ولا مهرب من قبضته المحكمة.

وفي غمرة الحركة الدائبة التي يثيرها المرضى والزوار وأصحاب الأرديــة البيضاء في غرف المستشــفى وممراتها قــرر أن يكف عن اجتــرار خواطره حول مرضه الخبيث، ومــا قد يكون من احتمالات. وبالرغم من أن الموضوع لم يكن ببســاطة قلــب قرص (فونوغراف) مــن وجه يئن بأغنية حزينة تســتدر الدمع والحســرة إلى وجه آخر يصدح بأغنية تنبض بالمســرة، فقد حاول أن يرخي الزمام لعقله، ولم يفعل شــيئاً ســوى تأمل ما يعرض أمام ناظريه من مشاهد المرضى الذين فقدوا لذة الصحة، وحرموا نعمة العافية، ورقدوا مرغمين على أسرة المرض. فعلى هذا السرير رقد مريض فاقد للحس والحركة لا يستطيع الطعام إلا بواسطة إبرة (سيروم) ثاقبة اخترقت أحد أوردته فنفذ منها الغذاء سائلاً إلى دمه، والتف حول سريره هالة من الأطباء في شــبه (كونســلتو) لمناقشــة حالته.. وهذا مريض يسحب قدميه ســحباً في ممر المستشــفى، ولا يســتطيع إفراغ مثانته إلا بواسطة أنبوب مطاطي لقسطرة لا تفارق جسده ليلاً ولا نهاراً.. وذلك جريح على حمالــة متحركة يئــن ويتوجع، نزف دمه حتى ضعف وشــحب

لونــه، يدفعه ممرض إلى غرفة العمليــات، وأهل المصاب وأصدقاؤه يتابعون الحمالة بوجوه تنطق بالصدمة، ويســيرون حولها مثل المنوم مغناطيســياً.. ومريض لا يستطيع الانتقال من مكانه إلا على كرسي متحرك.. وآخر اســتؤصلت حنجرته فلا يستطيع الكلام إلا بواسطة بطارية صوتية وضعت مكان حنجرته التي غزاها سرطان سموم التبغ القاتلة.. وآخر.. وآخر.. وآخر.

مــرات كثيرة جال فيها في ممرات المستشــفى وغرفه، طالباً أو زائراً، ولم تكن هذه المرة الأولى التي يشاهد فيها هذه المناظر المثيرة للشــفقة، بل هي مناظر مألوفة بالنســبة لطالب في السنة النهائية مــن كلية الطب، وإلى ذلك تملكه شــعور غريب بأنه قريب من هؤلاء النــاس أكثر من ذي قبل، وكأنما أدرك بغتة كنه شــيء كان يراه يوماً إثر يوم، ومرة بعد أخرى ولشــدة ألفة ناظريه مع منظره لم يعد يراه. ولعل بعض أسرار الحكمة الإلهية في الشقاء الإنساني، تكمن في أن توق نفوســنا العليلة لتاج العافية وطمأنينتها وهي تعرض عنا أحياناً يؤلمنا، ولكنه ينتزعنا من قيد دائرة الألفة مع نعم كثيرة اعتدناها، وما قدرناها حق قدرها، ولذلك غاب عن بصائرنا علو منزلتها.

٣

عندما أوى إلى البيت كان الوقت قد جاوز منتصف الليل بقليل. لم يعتد السهر خارج البيت، لكنه أراد كسب سويعات قليلة يؤخر فيها إلى الصباح لحظة مواجهة أهله بحقيقة مرضه؛ ولذلك أطال المكث عند زميله في الكلية حتى وقت متأخر من الليل. دخل من غير أن يحدث صوتاً ولا حساً، وتأكد من هجوع أبويه وإخوته. صعد إلى غرفته في الطابق العلوي من البيت، وشعر بداخلها بسكون لم يعهده من قبل، حدق في كل شيء في غرفته، وخيل إليه أنها تبادله النظرات الشفيقة، ملابسه.. كتبه.. رداؤه الأبيض المعلق في زاوية من زوايا الغرفة.. رداء طبيب المستقبل، فأدركه من الوحشة ما يدرك المشيع وهو يواري في الثرى صديقاً حميماً إلى مثواه الأخير. كان لديه إحساس غريب أن الذي دخل الغرفة للتو إنسان آخر مختلف تماماً عن ذاك الذي غادرها آخر مرة.. لم يستطع أن يصدق أن جملة واحدة حمراء أفقدته محوراً كان يدور مستقبله حوله في مدى ساعات غيابه عن غرفته.

أطفأ ضوء الغرفة، وأراد للظلمة أن تسود في فضائها، كان لا يريد أن يرى شيئاً.. ولا يريد أن يفكر بشيء.. وألقى بجسده المكدود على فراشه، وجذب الغطاء فوق رأسه، أغمض عينيه، لعل سنة من النوم تطبق جفنيه وتنسيه ما ألم به من الألم. لم يستطع أن يغفو ولو

دقائق، أضاء غرفته من جديد، وجلس في فراشــه إذ تيقن استحالة النوم تحت وطأة الأفكار الملحاحة التي فشــل في سلخها عن تلافيف دماغــه، وبدت لــه غرفته مهجورة، باردة، لا يســتطيع أن يتقي فيها صقيع خواطره بدثار ولا نار، وبقي منطوياً على نفسه في فراشه يئن أنيناً صامتاً لا يســمعه إلا وجيب قلبه. ولم يخرجه من وطأة الأفكار التي كانت تحوم فوق رأســه مثل خفافيش الليل وهي تطارد فرائسها إلا عندما أحس وقع أقــدام أبويه وهما يصعدان الدرج نحو غرفته، مــن المؤكد أن عيونهما لــم تذق طعم النوم في انتظــار عودة ابنهما من المستشــفى، ومعرفــة نتيجة الخزعة التي أخــذت من تفكيرهما كل مأخــذ، خاصة عند أبيــه التي ارتبط معناها في ذهنه – بالمرض الخبيث – والموت، وما زالت ماثلة في خاطره فجيعته بابنة أخيه التي أخــذت منها تلك الخزعة اللعينة منذ ما يقــرب من عامين، وجاءت جملة التقرير الحمراء تشــير إلــى تغلغل ورم خطير في أمعائها، من نوع (الأورام اللمفية). وتوفيت بعد ذلك بمدة وجيزة، وهي في مقتبل العمر وريعان الشباب.

أحس في نفســه مبلغ الألم الذي سيسببه لوالده خبر مرضه، إن خبراً كهذا ســينكأ جرحه القديم بابنــة أخيه الذي لم يبرأ بعد إذ ما زال ندياً في نفسه، بجرح جديد.. جرحه بابنه.. ابنه غرس يده.. لشد ما خشــي هذه اللحظة.. لحظة مواجهة أهله بحقيقة مرضه، وأحس بمبلغ حرج موقفه بالنسبة لأهله. باستطاعته الآن، لو أراد ذلك، ومن دون أن ينحى عليه أحد باللائمة أن يحوز بمرضه على عطف الجميع،

وأن يشـمل تأثير مأسـاته المضنية على كل من حوله، وأن ينتزع منهم أكثر ما يسـتطيع من دلائل الحب. لكنه لن يزيد لوعته بمرضه بلوعته بأهله.. وأحس أن ما سيصيب شغاف قلبه من جوى قلوبهم، لو علموا بمرضه، سيكون فوق ما يحمل من جرح مرضه القاتل!

وأخـذ يفكـر في طريقة يجنبهم بها آلاماً قد تهشـم ابتسـامة الطمأنينة على شـفاههم، وهم الذين باتوا يعـدون العدة للاحتفال بأن يروا أول طبيب يتخرج من هذه العائلة، بل أول طبيب يتخرج من قريتهم الصغيرة..

وتوصل إلى قرار لا رجعة عنه.. لن يشـد أهله وخصوصاً أبويه إلى قرارة الحزن بسبب مرضه.. وعزم على إبقاء سر مرضه حبيس صدره إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً..

وذرف دمعـة كانـت الأولى بعد تلك الجملة الحمراء، وجاشـت عواطفه ثم رفع رأسه إلى السماء وغمغم بضراعة:

– رحماك يا رب.. أعني على مواراة الحقيقة عن والدي، ولا تفجع قلبيهما بمرضي الذي سلطته على جسدي لحكمة أنت أدرى بها..

سـمع طرقاً خفيفاً على باب غرفته، وصافحت عيناه أولاً وجه أمه الحنون، وهي تدلف مع أبيه إلى غرفته، كان قلبها يسبق خطوها إليه، ونظـرت إلى فلذة كبدها بعينين مخضلتـين من البكاء نظرات حدب وحنان وكأنها تشاهده لأول مرة بعد غياب طويل.

obeikandi.com

- طمئني يا ولدي.. طمأن قلبي يا حبيب قلبي.. إن شاء الله...

وغصت بالكلمات في حلقها، ونشجت باكية، ولم تستطع أن تكمل سؤالها عن حاله.

انكب على يديها وعلى رأسها مقبلاً، وقبلته أمه في جبينه قبلة أودعتها كل ما في قلب الأم من حب ورحمة، أجلس أبويه على فراشه، ووضع يديه برفق ومحبة على عاتقيهما، وجلس بينهما، ونظر إليهما بابتسامته المحببة إلى قلبيهما محاولاً تهدئة خواطرهما، ثم توجه بالسؤال إلى أمه وهو يمسح بيده دموعها الدافئة التي ملأت وجهها الحزين:

- ما بكاؤك يا أماه؟! الأمر لا يتعدى كونه عرض من المرض لا يثير الخوف ولله الحمد.. وكل ما أرجوه الآن منكما أنت وأبي هو الدعاء.. لا شيء سوى الدعاء.. لعل الله سبحانه يتقبله منكما ويعينني على ما أنا مقبل عليه في الأيام القادمة من امتحان صعب وشاق!

غادر والداه الغرفة وهما يلهجان له بالدعاء بالنجاح والتخرج طبيباً يفخران به، وبتمام الفرحة بزفافه القريب بعد التخرج مباشرة، وعاد إلى فراشه، واستلقى على ظهره، وأخذ يفكر في حديث أمه، لقد أرقه كثيراً ذكرها لزفافه القريب، وحركت في نفسه من حيث لا تقصد دوائر من الهلع انداحت في عقله الباطن بقوة ودفعت أمامها إلى ساحة الشعور أوجاعاً دفينة وهواجس سوداء مخيفة.

لقد تذكرها.. بالرغم من أنه لم ينسها حتى وهو يتقلب دون وعي

obeikandl.com

منه في مرحلة الإفاقة من التخدير، فهذى باسمها الحبيب إلى قلبه، وكشف عن مكنون عقله الباطن.

لقد انبثق أمامه طيف خيالها مباشرة بعد تلك الجملة الحمراء، ولكنه أزاحه من ساحة الشعور، أو بمعنى آخر خدره تخديراً مؤقتاً في عقله الباطن، لعلمه أنه سيفضي به إلى احتمالات محيرة ومتتابعة.. احتمـــالات كان عقلـــه لحظتها أعجز من أن يســـتوعبها، أو يجد لها جواباً شافياً.. وما كان أغناه في هذه الليلة عن صحوتها.. ولكن طفا الحَبابُ على الشراب!

وتداعت على ذهنه ذكريات كالبرق خاطفة، بعضها يأخذ برقاب بعض.. ورفت نفسه إلى تلك الذكريات.. وشخص بنظراته بعيداً مثل ســـهم انطلق عاليـــاً نحو هدفه، وتذكر تلك اللحظـــة التي ألقى فيها مرســـاة عواطفه البكر لأول مرة في مينائها الوادع، وعرفها، وعرف منبتهـــا الطيب، وعرف فيهـــا الفتاة التي مـــا كان يرغب في فضيلة مـــن فضائل الخير من عفة وشـــرف أو أدب وحيـــاء إلا وتحلت بها.. وأخذت منـــه بعدها ميثاقاً غليظاً.. وعقد بين قلبيهما عقد ودٍ تمنيا ألا يحله إلا ريب المنون.. وزيارة بعد زيارة، ولقاء بعد لقاء.. أصبحت أشـــد التصاقاً بقلبه، وغدت توأماً لروحه، وطمأنينة لنفسه.. وحلما أن يضمهما بيت واحـــد يحيلانه إلى جنة صغيرة من جنان الأرض.. ومضت الأيام مسرعة.. وحين دنا الحلم وتدلى وأصبح قاب قوسين.. حدث ما لم يكن في الحسبان.

تقلب في فراشه قلقاً، وأمسك خاتم الخطبة الفضي، وسحبه من بنصره الأيمن ثم أعاده هكذا مرات متتالية، وأرسل تنهيدة حارة، وتساءل في حيرة:

- آه.. تراها الآن لو علمت بمحنتي، أكانت تسخو بقلبها على شاب مريض مثلي.. شاب شبه ميت يلبس كفنه الأبيض، ويقترب من قبره يوماً إثر يوم..؟

وعندما استطرد في الأفكار التي أجهدت ذهنه، ووصل بها، أو وصلت به إلى تلك النقطة، أمسك فجأة ساعة المنبه القريبة من فراشه، هكذا ودون أن يعرف سبباً مباشراً لتصرفه، وأخذ يحملق فيها بعينين جامدتين وكأنه لم يشاهد هذا الاختراع من قبل.. وتردد في فضاء غرفته رجع دقاتها الرتيبة المنتظمة واهتز داخل دهاليز أذنيه مثل اهتزاز جسر خشبي تحت قرع خطوات لنعال عسكرية منتظمة.. وبدأ يعد بنظراته الشاردة دورات عقاربها دورة وراء دورة.. وخيل إليه أن رقعة الساعة تحولت إلى مضمار لسباق غريب من نوعه.. سباق بين خصمين يعدوان باتجاهين متعاكسين.. لحظات عمره المتبقية في جهة.. وفي الجهة المقابلة عقربان معدنيان صغيران.. وشعر أن الدقائق تمضي من حياته سريعة جداً.. وأنه سيخسر الرهان حتماً لو أنه بقي يرقب بسلبية هذا السباق غير المتكافئ..

نحى ساعة المنبه جانباً، وانتفض واقفاً، وذرع غرفته وهو شارد، وكأنه يبحث عن جزء هارب من نفسه، وحاول التملص من قبضة

openkanal.com

الأفـكار التي طفح بها عقله، ولكن أمره مع خطيبته ملك عليه جميع عواطفه ومشـاعره.. وتملكته الحيرة، وتقاذفته عاطفتان على طرفي نقيـض.. قـوةٌ تجذبه إليها، وتتشـبث بتلك العاطفة الشـريفة التي كان يسـتمد منها سـعادته وهناءه.. وقوة أخرى تحثـه على أن يربأ بمشـاعرها بعيداً عن مرضه وآلامـه، لأنه لا يريد لها معه حياة قلق وترقب في انتظار معجزة..

وشيئاً فشيئاً ضاعت دقات الساعة، ومضى الليل إلا أقله، وجفا النوم عينيه، وعالج من نوازع نفسه وخوالجها ما عالج، وارتفع صوت داعـي فالق الإصباح في الفجر نديـاً، وتردد رجعه في الآفاق، ولبى نداءه وهـو يدعو إلى الفلاح، وحينما أسـفر عليه صبح يوم جديد، وبدأ ضوء الشروق يتسلل من نافذة غرفته وزحم ضوء المصباح شيئاً فشـيئاً، كان قد أضمر في نفسـه أمراً.. وشـعر أن قراراً حازماً قد اختمـر في رأسـه تماماً.. قراراً قد لا يخلو من الألم، وربما قاسـى منه الكثير.

٤

لم يكـن يفصله عن الباب إلا خطوة واحـدة فقط.. تردد قليلاً فـي طرق الباب، وكان عليه خلال لحظات قليلة أن يحزم أمره.. هل يلقي تحيته مبتسـماً مشرق الوجه كعادته، أم يجعل من تعابير وجهه العابسة رسولاً بين يدي مكاشفته لها عما يجول في نفسه..؟ وقبل أن يفكر في الجواب كانت أصابعه تسـبق أفكاره وتطرق الباب بطريقته المميزة.

حينما دخل كعادته إلى غرفة الضيوف التي كانت توشي لقاءهما دائمـاً بالأحلام الزاهية.. خفق قلبه خفقان طائر ينفض عن جناحيه قطـرات ندى الصباح، وتداعت إلـى ذهنه بعض الصور الحبيبة إلى نفسه والتي كان مسـرحها هذه الغرفة، وتراقص طيفها في مخيلته رقصاً حزيناً.. صور لشـخصين لا ثالـث لهما.. صورة خطيبته وهي تتجاذب معه بلباقة أطراف حديث ممتع ساحر يرسمان فيه الخطوط العريضة لحفل زفافهما القريب بعد تخرجه مباشـرة.. وصورة ثانية وهو يقدم لها باقة من ياسـمين دمشـق جمع زهراتها من كل عريش ياسـمين صادفه في طريقه وهو يمضي بشـوق إلـى موعده معها.. وصـورة أخرى وهي تقلب معـه صفحات كتاب يتخـذان من كلماته لبنـة يزيدانها في صرح بنيانهما الذي يؤسسـانه على تقوى من الله ورضوان.

openkandil.com

وشعر أنه كلما اقتربت لحظة مصارحتها بحقيقة مرضه انهالت عليــه احتمالات مؤلمــة أججت في قلبه المزيد مــن الرهبة والوجل.. والسؤال الذي وجده ينقر رأسه مثل نقر النقار الحجارة: ماذا لو أنها رفضت وصل أسباب حياتها بأسباب حياته، وكان قرارُها الفصلُ إنهاءَ هذه العلاقة فيما بينهما، وهي في ذلك صاحبة حق، وغير ملومة في النهاية؟ عندها ســيجد نفســه أمام واقع مر سيقاسي منه الكثير.. ولــو أن الأمر يقف عند معاناته هو فحســب لهان كثيراً، ولكن الأمر يبدو مثل حلقات مترابطة لا تستطيع فصل واحدة عن الأخرى.. فإن شــاركته بعد تفرقهما لوحدها في ســر مرضه وكتمته عن الجميع.. فبأي عذر ســتبرر لأهلها انفصام العــروة فجأة بين قلبين جمع الود بينهما.. وبأي عذر ســيبرر لأهلها الذين فسحوا له في قلوبهم مكاناً مرموقــاً، ولم يلق منهم إلا كل بشــر وســرور، انفصام رابطة القربى فجأة بين الأســرتين..؟ وإن باحت بسر مرضه حفاظاً على سمعتها، وحتى لا تلوك الألســن ســبب انفصالهما الغامض.. وهذا من حقها أيضاً.. ذكر وطأة الخبر القاســية على والديه، وما سيسببه لهما من تعاسة وشقاء..

وأقبلــت على الغرفة تحمل فنجانين من القهوة، ورحبت به ثانية بابتســامتها الفريدة الرائعة.. وهي الابتســامة ذاتها التي ودعته بها آخر مرة وهي تحاول أن تشــده إلــى الطمأنينة بعد أن أعلمها بكلام مقتضــب لا يثيــر المخاوف بأمــر الخزعة التي طلبهــا منه الطبيب المختص.

تنهد في حسرة، وتساءل في قرارة نفسه: أيعقل أن يظل ينعم بدفء هذه الابتسامة الصافية التي أمرعت في قلبه طوال الأيام الماضية سكناً ومودة.. أم أنه سيفقدها إلى الأبد..؟

نظرت إلى الكتاب الضخم الذي كان يحمله بين يديه، وسألته بشيء من الدعابة المحببة:

– قلبي غير مطمئن لهذا الكتاب الضخم.. لا تقل لي إننا سنأتي عليه في لقاء اليوم..!

لم يكن في أي لحظة مما انقضى من عمره أزهد في الابتسام، أو أميل إلى الوجوم منه في هذه اللحظة، ومع ذلك تكلف ابتسامة باهتة ما لبثت أن تلاشت وهو يضع الكتاب إلى جانبه على مسند الأريكة التي جلس عليها، هز رأسه يمنة ويسرة، وأجابها على سؤالها بشيء من الفتور:

– لا يا عزيزتي.. لن نقرأ منه إلا فقرة واحدة فقط..!

نظر إلى خطيبته نظرة عطف، مشفقاً عليها من تبعة حديثه الذي جاء من أجله في هذه الزيارة الصباحية المبكرة، وما قد يبعث في نفسها من دهشة وألم. وبدا شاحب الوجه قبل أن يبدأ حديثه إليها بصوت خفيض:

– لا أعلم من أين أبدأ حديثي.. ربما كان من الأفضل أن أبدأ من حيث انتهيت.. ولكن أرجو منك قبل ذلك أن تصغي إلى حديث قصير

obeikandl.com

أبثك فيه ما اعتلج في نفسي منذ البارحة وإلى هذه اللحظة.. ولا أدري ربما كان حديثي هذا آخر حديث بيننا، ثم لا أراك بعده ولا ترينني..!

هيج حديث خطيبها في نفسها الكثير من الشجن، وفغرت فاها من الدهشة عندما رنت جملته الأخيرة في سمعها مثل زعقة مفزعة، ولاكتها أفكارها المشوشة بسرعة، ولم تفهم ماذا يقصد خطيبها من كلامه الذي شابه غموض لم تعهده من قبل.. فقطعت حديثه في صوت مجروح:

- آخر حديث.. لا أراك بعده ولا تراني.. لماذا لا سمح الله..؟ صدقني إن عقلي في هذه اللحظة أعجز من أن يستوعب هذا الحديث المفاجئ..!

لم يخطر ببالها وهي تحفل بزهزهة آمال ما قبل الزفاف أن الأمور ستصل إلى هذه النقطة الحرجة، فقد شعرت أن واقعاً مؤلما قد حدث.. واقعاً أخطر بكثير مما تصورت. جلست على حافة الأريكة، أقرب ما تكون إلى خطيبها، وتسللت دمعة من بين أهدابها، وهي تنظر إليه بعينين يخيل للمرء إذا رأى اللهفة فيهما أنها واقفة على رؤوس أصابع قدميها وليست جالسة، وكأنها تستعجله أن يفصح عن السر الذي يكمن وراء حديثه الغريب.

وسادت فترة صمت قصيرة.. صمت من النوع الذي ينبئ عن حدوث فاجعة. أطرق حيرة ووجلاً.. وكانت آثار الأرق والإرهاق

تبدو على عينيه، وسـحائب الهموم تظلل ملامحه.. وتردد برهة في متابعة حديثه وكأنه يستدعي خلالها مخزون ذاكرته مما درسه في الطب النفسي مستعيناً به على تهيئة خطيبته على ضبط انفعالاتها النفسية، وتقبل الحقيقة المؤلمة التي سيفضي بها، نظر إلى خطيبته بذات النظرة العطوفة، وتابع حديثه بصوت شبه مبحوح:

- قد تكون الحقيقة مرة المذاق، ولا تخضع لعواطفنا ومشاعرنا، ومع ذلك فنحن مرغمون على قبولها.. والدنيا دار ابتلاء.. ولقد أصابني الله تعالى بشيء من المرض، لا حيلة لي في رده أو اتقائه.. وأدركت أن ما أصابني ليس إلا بقدر من الله.. وأنه ليس لي إلا الصبر، واحتسابه عنده تعالى.. ولقد كان في مقدوري أن أصبر على مصيبتي، وأن أنوء لوحدي بحملها.. لأن الركون إلى قضاء الله قادر أن يخفف من وقع مآسيه، إلى أن يمضي قضاء الله وقدره، ولكن الذي كربني، وزاد في محنتي، وأثقل علي حملي، إنما هو إشفاقي عليك من الكربة والحزن، وأنك ستنوئين معي تحت الحمل دون إرادة مني..

وكأنها أدركت أن أمر الخزعة الذي لم يعطه كثير اهتمام وهو يذكره لها في لقائهما الأخير، أخطر مما توقعت. وتحول إليه نظرها مباشرة، وبدا التأثر على قسمات وجهها الذي اكتسى بالقلق والحيرة، وسألته بنبرة شفيقة:

- أرجو من الله أن لا يكون أمر الخزعة الذي ذكرته لي آخر مرة سبب هذا الحديث المؤلم والحزين؟

تناول الكتاب بين يديه، وبحث عن صفحة محددة، وفتح الكتاب على صفحتين تفصل بينهما ورقة مطوية، تناول الورقة بصمت، ونظر إلى خطيبته بإشفاق، وتابع حديثه بصوت شبه مبحوح:

- البارحـــة أطلعني الطبيب علـــى نتيجة الخزعة التي ذكرت لك أمرها في لقائنا الأخير، وقد أحضرت التقرير الطبي معي، وأرجو منك أن تنصتي جيداً لما جاء في هذا التقرير من تشخيص للمرض..

فتـــح ورقة التقرير التـــي كانت طي الكتـــاب، وأدنى طرفها من خطيبتـــه، وتمهل في قراءة تلك الجملة الحمراء المرعبة، وكأنه يهجي كلماتها تهجية:

- لمفوما لاهودجكن ذات خلايا لمفاوية ناضجة، نموذج عُقيدي.. وضع كتاب (أمراض الدم) مفتوحاً أمامهما على المنضدة بحيث يمكن ناظريها من متابعة كلمات فقرة اختارها من الكتاب تصف هذا الورم الخبيث، وأطـــواره. وأراد لخطيبته من ذلك أن تكون على دراية تامة بطبيعة المرض الذي أبانته دراســـة الخزعة مجهرياً، ومدى خطورته على حياة المصاب بســـمومه القاتلة. أشار بسبابته إلى بداية الفقرة، وبدأ القراءة بنبرة مؤثرة:

- (لمفوما لاهودجكن ذات خلايا لمفاوية ناضجة، نموذج عُقيدي... ومراحل هذا الورم مماثلة لتلك في داء هودجكن، ولكن المريض يسير فيها نحو الموت بخطى ســـريعة، ومدة الحياة هنا أقصر وتتراوح بين ثلاثة أشهر إلى سنتين على أبعد تقدير..!).

تملى وجـه خطيبته بإمعـان، ونظر إلى عينيها مباشـرة وكأنه يستشـف أثـر كلامه عليها من خـلال نظراتها، متوقعـاً أن لكلامه المفاجئ وقع الصاعقة، ولكن خالجه شيء من الاستغراب.. استغراب أشاعه في صدره هدوء قسمات وجهها بالرغم من ملامح التأثر التي ظللتها.. وأن عينيها وعلى الرغم من حزنهما كانتا تشعان بنوع عجيب مـن الرضا، وخمن أنـه موهوم، وأن عينيه لا تعكسـان له إلا خبيئة نفسه من الرغائب.. أو لعلها لم تفق بعد من دهشتها.

لـم تبد رغبـة في التعقيب علـى كلامه مباشـرة، وظلت لائذة بالصمت تاركة العنان لحديثه حتى يتمه. رشـف ما تبقى من قهوته.. ابتلع ريقه، وشطف مرارة حلقه الجاف.. تنحنح، وتابع حديثه الحزين بما يشبه الهمس:

- صدقيني.. قصارى ما اسـتطعت فعلـه هو مصارحتك، وفي النهايـة هـذه حياتك، وأنت صاحبـة القرار.. ولـك الكلمة الفصل والأخيرة.. ولك أن تأخذي وقتك كاملاً في التفكير، وأن تستشـيري من شئت من أهلك!

أسـند ظهره إلى أريكته، وضم ذراعيه إلـى بعضهما قريباً من صـدره، وأخذ نفسـاً عميقاً، وزفره حاراً من فمه، نظر بشـرود إلى التقرير والكتاب أمامه على المنضدة، وتابع حديثه بصوت متهدج:

- أعلم أنني سأكابد في ابتعادك عني عذاباً كثيراً.. وسأدعو الله تعالـى ليلي ونهاري أن يمنحني الصبـر عنك، ويرزقني راحة النفس

وســـكونها من بعـــدك، وأن يمنحك من ذلك مثل مـــا يمنحني؛ فلعله يرحمنا جميعاً.. وإن كان لي من رجاء عندك، هو أن يبقى ســـر هذا الأمر حبيساً بيننا لا يطلع عليه أحد وخاصة والداي وإخوتي.

غرقت بحواسها ومشاعرها كلها في التفكير في واقعها الجديد المؤلم، الذي لابد لها من النفاذ إلى صميمه حتى تستطيع بعده مواجهة احتمالاته جميعها، وتلمست مأمناً يهديها إلى الفكر الصائب.. وسألت نفســـها: هل من خلق (ذات الدين) التي اختارها شريكة لسراء حياته وضرائها أن تثني عطفها الآن عنه، وتنسحب من حياته بهدوء، مؤثرة السلامة لنفسها بعيداً عن الحزن والآلام إلى جانبه، وكأن الأمر مجرد فقاقيع عواطف طفت على ســـطح حياتهما وقتاً ثم فقأها سريعاً خبر محنته، وانتهى بعدها كل شـــيء بينهما؟.. أم تكون قريبة من خطيبها، الذي قرر بنقاء ســـريرته وصفاء روحه أن يحتمل العذاب وحده رأفة بـــكل الذين أحبهم وأحبـــوه، وتمد له يداً حانية تهدهد جراح نفســـه القلقة.. وتجعل من نفسها عوناً له على ترميم نفسه المكلومة بالمصيبة، فإنهما أقدر سوية على تجاوز آلام المحنة..؟

أغمضت عينيها للحظات قليلة، أشبه بمن أغفى إغفاءة قصيرة، ونظـــرت بعدها إلـــى خطيبها الذي تحول إلـــى آذان صاغية بانتظار ســـماع ردها على كلامه، فكلما أمعنت لحظات الصمت في مضيها، اتســـعت في نفسه دائرة القلق وتحولت بالتدريج إلى شكل من أشكال الخوف.

ترقرقت الدمـــوع في عينيها، وبدأت حديثهـــا وفي صوتها رنة حزن وألم:

- لقد انتابتني مشـــاعر شتى وأنا أســـتمع إلى حديثك المؤثر.. فقـــد أخذني الفزع في بداية حديثك عندما ذكرت أنه ربما كان آخر حديـــث بيني وبينك، ولم يخطر ببالي أن ســـبب هـــذا الاحتمال هو المـــرض (عافـــاك الله منه)، لأنك مررت على ذكـــره في آخر لقاء لنا بشكل مقتضب لا يثير المخاوف، وإنما الذي أقلقني مجرد تصوري أن الســـبب الذي دفعك إلى هذا الاحتمال هو اهتزاز بعض الأركان التي طرقت من أجلها باب هذا البيت خاطباً.

تناولت من علـــى المنضدة أمامها كتاب (أمراض الدم)، أغلقته، ونحته جانباً، وتابعت حديثها بنبرة هادئة محببة إلى نفسه:

- لا أعرف الآن كيف أصف لك مشـــاعري المتباينة بعد أن أتيت على ذكر المرض، لقد هدأت هواجسي من جهة، وراعني خبر مرضك المباغت من جهة ثانية، ووقع كلامك في نفســـي كالعاصفة في رائعة النهار، وتملكني مزيج من مشـــاعر الحزن والقلق والإشفاق، وشعرت برغبـــة حقيقية في البكاء، ولكن بعد ذلـــك، ومع كل كلمة من كلمات حديثك المطمئن.. حديثك عن الابتلاء والصبر.. وقرارك تحمل الآلام لوحدك رأفة بكل الذيـــن أحببتهم وأحبوك.. حدث تحول غريب في مشاعري.. وكسرت مشاعرك الإنسانية حدة المصيبة عندي..

Obeikandl.com

صمتت برهة، وكأن نظراتها وملامحها تنبئ أن الخيال طاف بها، وأوغل قليلاً في الزمان، وحط بها في هذه الغرفة التي تضمها الآن مع خطيبها، وومضت في خاطرها مثل وميض البرق تلك اللحظة التي جاءهم خاطباً لها.. وعادت بسرعة إلى حديثها ثانية:

- أنت تعلم حق العلم أنني عندما قبلت بهذا الرباط المقدس الذي جمع بين قلبينا، ما قبلت به إلا لدينك وخلقك، وعندما أفكر في الانفكاك من هذا الرباط فالسبب واحد فقط، هو عيب في خلقك أو دينك لا سمح الله، لأن كل بلية من بلايا الدنيا مهما عظمت لها فرج وانقضاء، بينما المصيبة في الدين لا تعدلها مصائب الدنيا مجتمعة. لقد دفعني إلى هذا الاعتقاد ثقتي أننا ننهل من مشرب واحد.. والآن.. ماذا يتعين عليّ أن أقول لك..؟

خالجه شيء من الاستغراب، واكتسى وجهه بالقلق، عندما سكتت خطيبته عن الكلام، وانتصبت واقفة بشكل مفاجئ، واستدارت باتجاه باب الغرفة، وخرجت من دون أن تنطق ولو بكلمة واحدة، ولم يدر ما هو السر الذي يكمن وراء ما جد من تصرفها، ولعبت بفكره الظنون، وتساءل في نفسه: أتراها تريد الانفراد بنفسها، وتلقي على داخلها نظرة، لتدرك كنه ما حدث؟ أم أنها أفاقت للتو من دهشتها وأدركت خطورة الأمر، وأرادت بخروجها أن توحي له بصمت بكل ما تريد قوله؟ أو لعلها ترغب في استشارة والديها قبل أن تصدر حكمها النهائي على مستقبل علاقتهما..؟ وقبل أن يلوك ذهنه المشوش بقية

obeikandl.com

التســاؤلات والاحتمالات التي بدأت تضغط على صدره، أقبلت تضم بين راحتيها كتيبــاً صغيراً يعرفه تمام المعرفــة.. واعتراه في داخله لذلك المزيد من الغموض..!

اعتدلت في أريكتها، ونظرت إلى خطيبها نظرة حانية.. وتلاقت النظــرات.. وبدا وكأنه يمضغ صمته، وقلبه يــدق تلهفاً، كأنه ينتظر نتيجة امتحان على أحر من الجمر.. وأي امتحان! وقالت له في نبرة صدق لا تخفى عليه أبداً:

- لقــد أنفقت أنــت مما عندك.. وســأنفق أنا ممــا عندي..! أظنــك تتفق معي فــي أن أعمارنا أيام مقدرة فــي صفحات الغيب، ولا شــأن لمرض أو غيره في طول العمر أو قصره.. فإن كنت ضامناً لي بأن منيّتي ليســت قبل منيتك.. واعتقدت جازماً أن عمري أطول مــن عمرك، وأن تقدير الأطباء لأعمار المرضــى كلام منزل لا يأتيه الباطل.. فإني استودع الله هذا العقد المقدس بيننا، وسأعيد لك في الحال مهرك الذي نحلتني إياه..

وأدنت منه الكتيب الصغير الذي مازالت تحتضنه بين راحتيها.. نسخة من القرآن الكريم.. مهرها الغالي الذي نحلها إياه.. بل مهرها الذي حــددته بنفســها، وأرادت له أن يكون رمزاً لحياتهما المشــتركة في المستقبل.

رفــع عينيه إلى خطيبته وكأنه أمام أســتاذ قديــر.. لقد بهره

كلامها وأثار القشـعريرة في أرجاء جسـده، وحمله برفق إلى نقطة محيرة تفصل بين الحقيقة والحلـم.. وخفق قلبه في وجيب متصل، وشـعر حقاً أنه حاز على خير متاع الدنيـا.. لقد فهمت الدنيا على حقيقتهـا، فجعلت من نفسـها، رغم فداحة مصابهـا، عوناً له على صروف الدهر، وبقيت إلى جانبه في محنته، مع أنه كان من حقها أن تثني عطفها عنه، وتنسحب من حياته بهدوء.

لم ينبس ببنت شـفة، وأومأ إليها بكل ملامح وجهه التي عرفت لها كريم خلقها، أن تتابع حديثها الذي تحول داخل سمعه إلى نغمات ساحرة تعشقت في ثنايا نفسه، وملأتها بالسكينة. وأشرقت قسمات وجهها الهادئة بابتسـامتها الفريدة، وقالت له بصوت خفيض يوحي بالثقة والعطف:

– لا.. أيهـا الغالـي لن أعمد إلى الرباط الذي شـد بين قلبينا فأفصم عقدته.. ولن أشاور أحداً في أمرنا هذا، وليبق سرك حبيسَ صدري إلى ما شاء الله له أن يكون، وامدد يدك إلى يدي نمضي معاً، صابرين، محتسـبين، شـريكين في ثواب هذا الابتلاء.. وليقض الله اللطيف بعباده فيَّ وفيك قضاءه.

روت كلماتهـا التـي تدفقت من قلبها قبل لسـانها كالماء الزلال صدى نفسه الحائرة، ولامست شغاف قلبه، وتفتح فيه من جديد على قطراتهـا النقية غلاف زهور الأمل الذابلة، فتشـققت، وصحا على عبق شذاها الفواح من كل هواجسه، ومنعت داء جسده أن يسري إلى

نفســـه، فسكنت ثائرتها، ووجد برد الراحة في صدره.. وحدث تحول عجيب في نفسه.

غريب أمر هذه النفس البشــرية.. إنها هـــي التي تعطي الحياة لونها البهيج، أو المقبض.. إنها أشـــبه بإناء ملون يلون الســـائل الذي يحتويه بلونه.. والأغرب من ذلك أن هناءها أو شـــقاءها أو قلقها أو ســـكينتها، غالبـــاً ما تنبع من موقف صغير مـــن مواقف الحياة، وفي أحيان كثيرة من كلمة واحدة فقط.

لقد أصبح منذ الســـاعة ينظر بتفاؤل إلى المستقبل، وبعين غير العين التي كان ينظر بها إليه قبل حديثها.. وبدأت نجوم الأمل تختلف إلى ســـماء ســـعادته، فتضيء صفحتها، وتلمع في أرجائها.. وأخذت أبـــواب الرجاء تتفتح له واحداً تلو الآخر.. وأيقن أن الله أرحم من أن يبتليه في العافية ويحرمه السلوان معا.

بســـط كفيه نحو كفيها، مودعاً لها، فشعر بدفء يشيع في أديم راحتيه، ويســـري في حنايا صـــدره.. ترقرقت الدمـــوع في عينيه.. وهمس لها وهو يشيعها بنظراته التي تشع بالتقدير والمحبة:

- سلمت يا هنائي.. سلمت يا أيتها الطيبة..

٥

خرج من لقاء خطيبته وقد انجابت عن فكره غمة شـــديدة، فقد كفتـــه بموقفها الفريد مؤونـــة معركته الأولى مـــع مرضه الخبيث.. وزايلـــه الخوف من عقابيل تلك الاحتمـــالات المؤلمة لانفصالهما التي كان سيتضلع من كأسها علقماً أمر من علقم المرض نفسه.

وبعد ســـاعة واحدة تقريباً وجد نفســـه في مبنـــى كلية الطب، ولغاية في نفســـه فضل القدوم ماشـــياً على ركـــوب الحافلة. فقطع الشـــوارع من رصيف إلى رصيف.. واندمج بالناس من حوله.. وزاحم وهو في عجلة مـــن أمره كما يزاحم بقية الناس.. وكأن عقله الباطن أراد أن يثبـــت له بأنه تجاوز ســـاعات الحصـــار الممضة التي حاولت أثناءها هواجس المرض الســـوداء ضربها على ثغور الأمل في حياته، وأن نفسه استرجعت ذلك المحور الذي افتقدته البارحة، المحور الذي كان يدور بين قطبيه مرمى مســـتقبله، وأنه ولـــج من جديد في هذا العالم الصاخب من حوله، شـــعور قد يبدو غريباً بعض الشيء، ولكن ليس بالنســـبة لمن انصرف عنه هذا الشعور مكرهاً بعض الوقت، لأن النعيم لا يدرك بالنعيم!

حفلت ردهة الكلية وممراتها بعدد غير قليل من الطلاب، وراقب الانفعالات المتباينة للوجوه الكثيـــرة التي مرت أمامه، كانت معظمها تنطق بنوع من الترقب والقلق، وكأن حمى الامتحان الذي أصبح منها

قاب قوسين أو أدنى قد ذوبت ملامحها، وسكبتها في قالب واحد فتماثلت وغدت وكأنها وجه واحد لأشخاص عدة.

مضى وسط الطلاب، وبحث بينهم عن زملائه وبادلهم التحية بحرارة، وتجاذب معهم أطراف الأحاديث حول الامتحان الذي بسط سلطانه العجيب على نفوسهم، فأصبح شغلهم الشاغل، والحديث عنه يعلو على كل حديث.

وراعه أن بعض زملائه الذين التقاهم كانت رؤوسهم تميل إلى رؤوس بعض بعد انصرافهم عنه، وتنظر إليه عيونهم خُلسة بنظرات تشع بالشفقة والاستغراب، والتقط سمعه بعض همهماتهم وهمساتهم:

- ماذا يفعل هنا..؟

- ماله الآن وللامتحانات..؟

- مسكين.. كأنه لا يدرك مدى خطورة مرضه الخبيث..!

تبسم في سره، وأدرك أن خبر مرضه لم يعد خافياً على الكثيرين منهم، وأنهم تقديراً لمشاعره لم يتعرضوا له مباشرة بالسؤال عن مرضه.

وراودته رغبة غريبة بعض الشيء.. رغبة في أن يوقف كل زميل من زملائه ويهمس في أذنه:

""يا صديقي، إن مــا أصابني من خطب بغير إرادتي، وبالرغم من خطورتــه، ما هو إلا امتحــان.. امتحان لا يختلف كثيراً عن أي امتحان آخر.. وهل حياتنا التي نحياها إلا ساعة امتحان؟ وقد تطول هذه الساعة وقد تقصر لكنها على كل حال ليست أكثر من ساعة امتحان"" .

إن وخزات المرض وآلامه كثيراً ما توقظ في المريض الإيمان الغافي في أعماقه، وتجلو مرآة بصيرته فيشــاهد الأمور جلية على حقيقتها كما يجب أن تكون، إنها أشــبه بوخزات رأس نصل تعالج ببراعة شقاً صغيراً في قشــرة محارة بحرية لتتفرج عن لؤلؤة ثمينة.. أما عندما تكون المحارة عقيمة، وقيمتها لا تساوي أكثر من قيمة قشرتها اللزجة الملقاة بين النفايات، فعندها لا تجدي وخزات الابتلاء في حث المبتلى على التوقف ولو للحظات قليلة ليسأل نفسه التائهة:

من أين؟ وإلــى أين؟ وماذا بعد الموت؟ والأمر حينئذ يســتوجب الهلــع، لأنــه يكون عندها قــد تحول إلى ميت حــي يمضي في نفق الطموحات المظلم غافلاً أن النفق ســيفضي به في نهاية المطاف إلى حفرة لا تتجاوز أبعادها أكثر من أبعاد جســده المسجى داخلها.. وأن الموت ليس نهاية القصة ولكن بدايتها!

٦

من الأســـرار المحيرة للنفس البشـــرية أنها لسبب أو لآخر دائمة التقلب ولا تثبت على حال، ســـواء كان ذلـــك بإرادتها أو رغماً عنها. ومـــن ذلك أنها ما إن تحظى بالمغنم الـــذي رنت إليه ردحاً طويلاً من الزمن ويغدو طوع يمينها ســـرعان ما تراها تزهد فيه بعد حين، كما لـــو أنه قد فقد بريقه، وضاعت منه جاذبيته فإذا بها تتحول عنه إلى هدف جديد أشد بريقاً وأكثر لمعاناً إذ ليس لطموح النفس خط نهاية تســـتقر عنده وتنتهي إليه، فما إن رشـــف من كأس النشـــوة بالنجاح والتخرج رشـــفة يســـيرة، وغمرته مشـــاعر البهجة بأنـــه أصبح أول طبيب فـــي العائلة، بل أول طبيب تفخر بـــه قريته الصغيرة، وأحس أن الحلم الذي داعـــب مخيلته طويلاً غدا حقيقة واقعة، حتى أطلت تلك الجملة الحمراء المرعبة برأســـها من جديد، محذرة إياه أن عدّاد الأيام يتحرك مسرعاً، وأن عليه (خطوة ثانية) يجب أن يخطوها قبل فوات الأوان.

وعادت تهدر في رأسه تلك الجملة التي سمعها من أستاذه وكأنها صوت انهيار سور من الأحجار السوداء حجراً فوق حجر:

- لا.. لن نستســـلم للمرض بسهولة، بل ســـنبذل كل الإمكانات المتاحة لدينا الآن للعلاج.. وأفضل اللجوء فور انتهائك من الامتحانات إلى الخطوة الثانية..

- الخطوة الثانية... الخطوة الثانية..

كـــرر الجملـــة وهو في حالة من الشـــرود، وتـــواردت إلى ذهنه المشـــوش صور شـــاحبة من غرفة العمليات التي دخلها في حصص الجراحة في أثناء ســـنته الدراســـية الأخيرة، وتخيل نفسه للحظات مخدراً على طاولة العمليات وقد التف من حوله الجراحون بأقنعتهم الطبيـــة الخضراء، وأضاءت المصابيح المبهرة بطنه العاري الذي غرز فـــي جرحه المفتوح مشـــرط الجـــراح، وتخيل يد الجـــراح تصل إلى الطحـــال وبعض العقد اللمفية في عمق بطنه المفتوح؛ فتســـتأصلها؛ وتمتـــد يد الطبيب المســـاعد لتضع الملقاط القاطـــع في كف الجراح المفتوحة فيأخذ به خزعة من الكبد، وملاقط المساعدين تعمل بدأب محاولـــة وقف نزيف الأوعية الدموية الصغيـــرة التي أحالت دماؤها النازفة قطع الشاش البيضاء إلى حمراء قانية.

ومر بذهنه أكثر من صورة، وأكثر من احتمال، ولكنه لم يشـــأ أن يتـــرك العنان لتلك الاحتمالات، أو بمعنى آخـــر أدار دفة تفكيره إلى جهة مغايرة، وبدأ يســـلي نفسه عن العملية ويهّون من أمرها، وهمس بصوت شبه مسموع:

- مجرد عملية.. مجرد عملية ليس إلا..

كان يعـــي أنه رغم خطورة العملية على حياته، لابد من البدء في السعي للأخذ بكل الأسباب المادية المتاحة للعلاج لدى الأطباء.. وبدأ رحلته بدافع من إيمانه بأنه ما أُنزل من داء إلا وأُنزل له دواء.. ولكن

ما صادفــه بعد ذلك في تلك الرحلة كان غريبــاً إلى حد يمكن معه القول.. صدق أو لا تصدق!

نقطة البداية في رحلته الغريبة كانت داخل عيادة أستاذ الجراحة، الــذي عرض عليه أمره، ورجاه أن يتولى بنفســه إجــراء عملية فتح البطن الاستقصائي، ولكنه اعتذر إليه بلباقة وأحاله إلى جراح آخر. وتوجه إلى ذلك الجراح، وهو أستاذ أيضاً في كلية الطب ولكنه اعتذر إليــه بدوره وطلب منــه التروي في الأمر قبــل أن يقرر دخول غرفة العمليات والاستسلام لمبضع الجراح!

كان يــدرك أن الســبب الذي دفــع الجراحين إلــى المماطلة أو الاعتــذار هــو قناعتهم منذ اللحظة الأولى أن إجــراء هذا النوع من العمليات أشبه بخوض معركة خاسرة مع خصم شرس لا تجدي معه أسلحة العلم المادية المتاحة. ومرضه من ذلك النوع الذي وقف الطب عبــر تاريخه المديد عاجزاً عن اختــراق حصونه، فحار عقل الأطباء فــي أمر علاجه، وقلّب العلمُ أمام جبروته كفيه عجزاً، وأصدر حكمه بعدهــا على المريض بالموت المحتم؛ حكماً لا روح فيه ولا عدالة؛ وهو أشــبه بمعادلة رياضية جامدة عند تحقــق الطرف الأول منها فلابد لطرفها الثاني أن يتحقق أيضا!

ولســر عجيب من أســرار الحكمة الإلهية قَصُر عقله البشــري وقتهــا عن إدراك كنهه، أوصدت رغماً عنه منافذ العلاج المادية التي قصدهــا بصدق وعزيمة، فأغلقت دونــه أولاً أبواب غرف العمليات

الجراحيـــة، ومن بعدها أغلق أمامه باب (التصوير الشـــعاعي الملون للأوعية اللمفية)، وهي وقتها وســـيلة طبيـــة مبتكرة تفيد في معرفة مدى انتشـــار المـــرض الخبيث في جســـم المريض، وتحـــدد الدرجة التـــي وصل إليها بصورة تقريبية فقد أعيـــاه البحث دون جدوى عن مادتها الملونة والظليلة التي تُحقن تحت جلد الســـاق وتتسرب بعدها إلـــى الأوعية اللمفيـــة، ومن خلال الصورة الشـــعاعية للعقد اللمفية المتضخمة يتم اختيار طريقة العلاج المناسبة بعد تحديد أنحاء البدن التي غزاها المرض الخبيث.

كان البـــاب الأخير الذي أوصـــد أمامه باب جلســـات المعالجة الشـــعاعية في مركز الطب النووي الذي أرشـــده إليه أستاذه رئيس قسم الأورام.

والغريـــب في الأمر أن هذا البـــاب أوصد أمامه قبل أن يقصده أساساً، أو بمعنى آخر حال بينه وبين هذا الأمر طارئ طرأ في حياته، ولكن كيف حدث هذا ... وما هو سر هذا الطارئ في حياته الذي بدأ معه الفصل الأخير من قصته الغريبة؟

الجواب على هذه الأســـئلة المحيرة ليس مما يقال سريعاً، فأمور الغيب في حياتنا أشـــبه ما تكون بطريق مظلم لا نســـتطيع تبين معالمه والســـير على رصيف الأمان فيه إلا إذا هدانـــا التفكير الصحيح إلى إضاءة المصابيـــح المطفأة التي تمتد بكثرة علـــى جانبيه، فكل مصباح نضيئه يكشـــف لمداركنا مدى جهلنا بالمســـاحة التـــي كانت مظلمة في

حياتنـــا في هذا الجزء مـــن الطريق.. ومن الناس مـــن يحاول لجهله وتعصبـــه لمذهبه في الحياة بمختلف نعوته إبقاء المصابيح مطفأة أمام خطواته، وإن عثرت به فرس مذهبه ولم تبلغ غاية يســـتقر عندها لأنه ضـــرب فيها ابتداء على غير هـــدى، راح يكيل اللوم بعدها جزافاً على ظلمة الطريق متهماً إياها بأنها السبب في عثرته وتخلفه عن الركب!

لهذا قد يســـتعصي فهم الجواب على مدارك بعض الداعين إلى تعريـــة العلم والطب مـــن جلباب الإيمان بزعمهـــم أن العلم والإيمان قطبـــان لا يلتقيان، وأن ارتقاء العلم يعني بالضرورة إقصاء الدين عن ســـبيله! ويتباهون بأنهم (علمانيـــون) يخوضون المعارك بحراب العلم فقط بعيداً عن أمور الغيب.

obeikandl.com

٧

حكاية الطارئ الذي طرأ في حياته بدأت بكل بساطة في صلاة الجمعــة، فلم يكن يدرك عندما صعــد خطيب الجمعة درجات المنبر بتؤدة ووقار أن جملة واحدة بعينها من خطبته ستحدث تغيراً خطيراً فــي القــادم من أيام حياته، بل إن حديثاً شــريفاً من مشــكاة النبوة ستسري معانيه العجيبة في نفسه وتومض بين حناياها مثل سنا برق خاطف مبشرة بدنو لحظة الفرج وكشف ما مسه من ضر.

خلــص إلى موضع قريب من الصف الأول في المســجد، وجلس على ركبتيه ساكناً، متحفزاً، وأصغى إلى حديث الخطيب بأذن واعية متلقفــاً كل كلمة من كلماته. ومد نظــره أمامه باتجاه واحد لا يتبدل غير حافل بأي شــيء من حوله، وبدا المنبر بالنسبة له مثل بؤرة ضوء تتلاقى عندها أشعته البصرية، وتنعكس عنها ذبذبات موجات صوتية محببة إلى نفسه لم يعترض إلى سمعه دونها شيء. وتملكه شعور أنه وحيد مع نفسه في المسجد، وأن الخطيب خصه وحده بالخطاب دون غيره من هذا الحشــد الكبير من المصلين الذين غص بهم المســجد على رحبه، فاتصلوا وتقاربوا؛ وتتابعوا صفاً وراء صف؛ مثل ســطور الكتاب المتسقة.

ذكر الخطيب، وهو عالم فاضل من علماء دمشــق، الحديث في سياق خطبته حول العلم والإيمان، ودلل على صدق الحديث وإعجازه

بقصة واقعية لم يمض على وقوعها زمن طويل. قصة اطلع هو شخصياً على جزء من أحداثها، ونشرتها بعض الصحف ووثقتها بالتقارير والتحاليل الطبية والصور، قصة امرأة غزا السرطان القاتل جسدها، وأعياها البحث عن العلاج في بلدها فقصدت أكثر بقاع العالم تقدماً في أمور الطب، وأنفقت في سبيل ذلك الكثير من الوقت والمال، ولما رفع الطب عنها يديه عجزا واستسلاماً، وفشلت العقاقير في علاجها، وحزبتها الشدة، لم تجزع، وفزعت بصدق إلى الله، وعلمت أنه هو القادر على رد طمأنينتها، فأبرأها من مرضها الخبيث بعد أن هداها إلى وصفة معجزة من وصفات الطب النبوي.. وصفة العلاج بالصدقة.

لامست المعاني المعجزة لحديث المصطفى ﷺ: «داووا مرضاكم بالصدقة» شغاف قلبه، ودقت ولطفت حتى تردد رجعها اللطيف في قرارة نفسه، وهدهدت في ذلك المكان السحيق منها كل آهة من آهاته القلقة، وشعر كأن يداً حانية امتدت إليه برفق وأرشدته إلى الدواء الناجع لمرضه بعد أن فشلت أسباب البشر، وعجز وارد الطب عن أن يدلي بدلوه ويخرجه من غيابة جب مرضه العضال الذي ركن في ظلمته صابراً محتسباً في انتظار معجزة.. في انتظار أن يحسن به ربه ويأتيه بالفرج.

لم يكن مبعث إيمانه بالحديث، وثقته بدنو لحظة الفرج من باب تعلق الغريق بأي طوق للنجاة يرمى إليه بعد أن شارف على الهلاك، أو

مــن باب أنه لا ضير من التجريب، أي إن لم تُجْدِ الصدقة نفعاً فإنها لن تضر، لكنه عندما سـمع الحديث واسـتوثق من مصدره وصحته، ارتقى الحديث بنفسـه وسـما بها عالياً حتى غدا أشبه بطيار داخل طائرة محلقة في الجو، فلما نظر إلى ما دونه من الحقائق التي آمن بها وصدق بوجودها وهـو على الأرض، وجدها هي.. هي لم تتبدل، غيـر أن نظرته الفاحصة من علٍ كانت أكثر دقة وأوسـع أفقاً فزاده ذلك إيماناً على إيمان.. وعلم أن من خلق المرض خلق له الدواء.. وأن الذي أودع الدواء علة الشفاء قادر على تعطيل هذه القوة المودعة فيه، وبث سرها في كلمة أو حديث أو ما شاء له من الوسائط والأسباب.

obeikandl.com

٨

خرج من المسجد منشرح الصدر وقد عرف من المعاني العظيمة لخطبــة الجمعة ما لم يعرفه حتى كأنه لم يفطن إلى هذه المعاني من قبل، وعزم في نفســـه على أمرٍ؛ وهو الذي عُرف دائماً بين أصحابه بقوله: «عندما تعزم في نفســك على أمرٍ وأنت تســتمع إلى الخطبة فاعلم أن الخطيب أجاد في خطبته وأحسن صنعاً».

لــم ينفق الكثير مــن الوقت فــي التفكير بعد تلــك الجمعة المشــهودة، وبدأ مباشــرة رحلة بذل فيها طاقته واستفرغ وسعه في البحث عن فقير يحســبه الجاهل غنياً من التعفف، يُعرف بسيماه لا يسأل الناس إلحافاً..

ولم تطل رحلته كثيراً، وحط رحل إحسانه مع دليله إلى الخير في بيــت متواضع ضم بين جنباته أرملة تقية صابــرة، تعيش مع أطفالها اليتامى تحت ظل الرحمة الإلهية الممدود، وآتاهم على حبه مبلغاً يسيراً، كان كل ما يملكه في ذلك الوقت، هو صدقة المقل، وكان يرجو أن ينطبق على درهمه وصف الحديث الشريف: (سبق درهم مئة ألف).

مــرات كثيرة تصدق بصدقــة فأخفاها حتى لا تعلم شــماله ما أنفقت يمينه، بقصد إســرارها وبعداً بها عن الرياء، ولكنه شعر هذه المرة أن لصدقته طعماً مختلفاً؛ إنه مزيج من طعم الرحمة الذي تذوقه

وهو يحس بالألم المشترك بينه وبين هذه الأسرة الفقيرة وإن اختلفت مشاربه عندهما مع طعم المواساة وقد وقع في نفسه أن مواساته لهم كمثل المبتلى يواسي من كان مثله في البلوى، وشعر أن الطمأنينة، التي صرفها البلاء عنه بعض الوقت بعد تلك الجملة الحمراء، أوشكت إليه من جديد مع كل ابتسامة مسحت ولو للحظات قليلة معاني الحرمان التي ارتسمت على وجوه الأطفال اليتامى.. ومع كل كلمة ضمختها تلك المرأة الصابرة المحتسبة بدموعها شاكرة له صنيعه، وهي ترفع بخشوع كفيها المفتوحتين إلى السماء، وتتضرع بصدق:

- أذهب الباس رب الناس، اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً.

أحس أن قلبه يبتسم من أعماقه وهو يشاهد الصغار وقد التفوا حول أمهم مثل أفراخ اليمام، وانهمرت دموع الفرح من عينيه عندما ارتفعت أكفهم الصغيرة الغضة، واستمع إلى هدلهم الطفولي المحبب وهم يُؤَمِّنون ببراءة عجيبة على دعاء أمهم له بالشفاء.

لم يكن متصوفاً، ولكنه دخل في حالة من النقاء الوجداني يغبطه عليها الصوفيون بقلوبهم التي تتوق وجداً لإدراك الحقيقة والوصول إلى لحظة الكشف، واستحال قلبه إلى لسان رطب من شكر بارئه الذي أولاه نعمة الصبر على البلاء، وساقه إلى أعتاب لطفه بعد أن سُدَت دون الفرج من كربته أبواب خلقه من البشر، وأكرمه بالجلوس سوية مع هذه الأسرة الفقيرة على مائدة رحمته وإحسانه، ونبضت

كل خفقـة من خفقات قلبه بنـداء صامت.. نداء نبـي الله الصابر الأواب إلى من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشـف عنه السـوء: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

لقد آمَنَ بحديث: «داووا مرضاكم بالصدقة»، إيمانه بالغيب الثابت الموثـوق الصادق الـذي لا يُتصور حدوث الكذب منـه، ولم يتقصد أبداً إجهـاد فكره في البحث عن المعانـي المعجزة للصدقة، أو إدراك الحكمة الربانية من بثها سـراً من أسرار الشـفاء، لولا أن تألفت في خياله، ثم تراكمت لوحات سريعة لأحاديث طالما قرأها أو سمعها، وتنسم لأول مرة مثل ريح طيبة عبق الرحمة وهو يخرج من خلال هذه الأحاديث المذهلة:

«الكلمة الطيبة صدقة، تبسـمك في وجه أخيك صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، والبر شـيء هين وجه طلق وكلام لين..»، فتوسـعت به آفاق الأفكار والرؤى، وتقاطرت في عمق روحه الحقيقة تلو الحقيقة لسر الصدقة، بل لسر الابتسامة، وجبر القلوب المنكسـرة. وأحس بصوت ينبعث من مكان سـحيق في روحه، ويتردد رجعه داخل أعماقه مثل لحن عذب شجي:

«جلـت حكمتك يا رب.. يا من أودعت الصدقة سـراً من عظيم أسرارك.. وجعلتها مثل ماء زلال تجود به يد معطاء على جذر شجرة عطشـى في يوم قائظ، فتسقي ثراها حتى يرتوي، ويمتصه جذرها، فيندفع نسـغ الحياة صاعداً بفروعها وأوراقهـا الذابلة، فتدب فيها الحياة من جديد، وتعود على صاحبها بالخير والثمار».

توقف للحظات في الطريق، ونظر مبتسماً إلى صديقه ودليله على الخير شقيق الأرملة الصابرة الذي كان يثني على إحسانه خيراً، وبادره بسؤال مفاجئ بعد أن خرجا سوية من بيت الأم الصابرة وأطفالها الأيتام:

- هل سمعت يا صديقي عن متصدق يثني خيراً على فقير متعفف لأنه كان رحيماً به وقَبِل منه صدقته...؟!

غلَّفت الحيرة معالم وجه شقيق الأرملة الفقيرة، ولم يجد ما يرد به على سؤال صديقه الطبيب إلا أن يكرره من بعده مثل صدى الصوت:

- متصدق يثني على فقير متعفف خيراً لأنه كان رحيماً به وقَبِل منه صدقته؟!

لم يترك الطبيب حيرة صديقه تطول كثيراً، وربت بلطف على كتفه، ثم أشار بيمينه جهة بيت الأرملة الفقيرة، وجعل جوابه على السؤال بعض مشاعره التي كانت تجول في خاطره في تلك اللحظة:

- صدقني.. منذ لحظات قليلة أدركت وأنا في حضرة هذه الأم الصابرة وأطفالها اليتامى أن تلك القلوب الصافية والأكف الطاهرة التي قبلت صدقتي، وتوجهت بالدعاء إلى الشافي أن يرد عليّ عافيتي المدبرة، كانت رحيمة بي غاية الرحمة، ومنحتني سراً من أسرار الحياة المذهلة.. أتدري ما هو هذا السر يا صديقي..؟!

عقدت الدهشة لسان شقيق الأرملة الفقيرة، بعد أن فوجئ بسؤال آخر كان وقعه على عقله أغرب من سابقه، وعبر بحركة صامتة من كفيه وشفتيه عن عجزه عن الجواب، ثم أحال بنظرة من عينيه الحائرتين السؤال ثانية على صديقه الطبيب.

أطرق الطبيب قليلاً، ثم رفع رأسه، ونظر مبتسماً إلى صديقه الذي كانت معالم وجهه تنبئ عن شوقه البالغ لمعرفة ذلك السر المذهل، وأشار بسبابته إلى فمه المبتسم، وأجاب بكلمة واحدة فقط على السؤال الذي أثاره هو بنفسه:

- الابتسامة..!

وقبل أن يتفرقا صافح صديقه شقيق الأرملة الفقيرة ، وبقي بعض الوقت ممسكاً بيمينه، وتابع حديثه بلهجة هادئة بعد أن لاحظ تعطش صديقه لمزيد من التفاصيل حول هذا السر الغريب:

- نعم يا صديقي.. الابتسامة الحية الصادقة هي الإكسير العجيب التي لن أزعم أنها تطيل الحياة، بل هي التي تعطي العلاقات البشرية مذاقاً حلواً، وأن حلاوتها الحقيقية في مشاركة الآخرين صعوبة الحياة.. فلو أقفرت القلوب من الأسباب النبيلة للابتسامة، وخلت الوجوه من بريقها الصادق، لأصبح الوجود والعدم سواء.. فهل من أسرار ما صنعه الخالق شيء أعجب من الابتسامة؟!

٩

أقبــل الليل ومضى هزيعه الأول وهجــع الجميع ولم يتلامس له جفنان، لقد نأى بنفسه عن أفراد أسرته، وجلس وحيداً ساهماً شارد اللــب يقلب أفكاره ملياً فيما هو مقدم عليه فــي الغد، وخفق قلبه خفقات غامضة وهو يستذكر أن ساعات قليلة من الزمن تفصله عن ليلــة من ليالي حياته الفردة.. ليلة العمر التي تشــوّف إليها شــهوراً طويلة، وهاله أن بعض الهواجس المشوشــة تغلغلت إلى داخل نفسه، وبدأت تناوش فيها لحظة التردد البشــرية التي تنتاب الإنسان عادة قبــل أن ينعطف بمســار حياته في اتجاه مختلف تماماً عن ســابقه، وشــعر أن طلائع القلق بدأت تنطلق من مكان ما من بين ثنايا نفســه مثيرة أسئلة خاطفة تحاول إدخاله في دوامة احتمالات غامضة:

كيف تقدم على الزواج وحياتك مهددة بالخطر في كل لحظة..؟

لماذا العجلة..؟

ماذا عن تلك الفتاة الطيبة..؟

ماذا جنت حتى تكون ســبباً فــي ترمُّلِها وهي في مقتبل العمر.. وإن طال بك العمر قليلاً، ربما يكون زواجك منها ســبباً في يُتّمِ طفل لا ذنب له أيضاً..؟

وشعر في قرارة نفسه أن المحرض لهذه الأسئلة التي بدأت تتلاطم في عقله الباطن وتتداح شيئاً فشيئاً، هو تلك الجملة الحمراء التي ما فتئت تنفث في عقدها بين الفينة والفينة محاولة إحداث فرجة في جدار الطمأنينة المحيط به، والتغلغل من خلاله إلى داخل مسامات نفسه لتطفيء فيها ذبالة الأمل المتقدة.

أدرك من تجاربه السابقة أن البحث عن أجوبة لهذه الأسئلة الهائجة سيولد أسئلة جديدة، لا قبل له بالرد عليها، ووجد أن أفضل رد على هذه الأسئلة هو الانصراف بذهنه بعيداً عنها، وأن من الحكمة عدم مواجهتها، لأن مواجهتها في هذه اللحظة أشبه بالوقوف في منحدر أمام كرة ثلج مندفعة من عل بقوة.

عند ذلك قرر أن يترك نفسه لخياله ليلجأ بأسئلته إلى فتاته.. نعم، ما أحوج نفسه في هذه اللحظة إليها.. إلى موضع سره وأليف حياته.. ما أحوجه إلى كلماتها المحببة وهي تمده بجرعة من الجرأة التي هو الآن في أمس الحاجة إليها.

لقد انقضى أسبوع كامل دون أن يرى أحدهما الآخر، ودون أن يتبادلا همسة واحدة، هكذا كانت العادة عند العروسين ليزداد اشتياقهما قبل أن يجمعهما معاً سقف واحد، ومع ذلك كان يحس أنها ضيف عزيز دائم الحضور على أفكاره، وعلى أحلامه، فإن فكر فهي أفكاره.. وإن حلم فهي أحلامه، وإن تمنى فهي غاية ما يتمنى على الله من أمنيات.

أغمض عينيه، وأعاد بخياله عقارب الزمن إلى الوراء.. إلى لحظة هي من أجمل ما سلف له في حياته.. إلى لحظة سحرية.. آنست حينها وحشته.. وأنسته آلامه ومعاناته.. واستحضر صورتها في ذهنه، وتذكرها وهي تحتضن بين راحتيها نسخة من القرآن الكريم.. مهرها الغالي الذي نحلها إياه، بل الذي تمنته بملء اختيارها.. وتذكر كلماتها المؤمنة وهي تتحدث إليه، وأصغى إلى رجع صوتها بكل خفقة من خفقات قلبه:

- إن أعمارنا أيام مقدرة في صفحات الغيب، ولا شأن لمرض أو غيره في طول العمر أو قصره.. فإن كنت ضامناً لي بأن منيّتي ليست قبل منيتك.. واعتقدت جازماً أن عمري أطول من عمرك، وأن تقدير الأطباء لأعمار المرضى كلام منزل لا يأتيه الباطل.. فإني أستودع الله هذا العقد المقدس بيننا، وسأعيد لك في الحال مهرك الذي نحلتني إياه..

أحس عند ذكر حديثها هذا أنه لامس كل خلية من خلاياه التي سرى فيها دفؤه وتسرب إلى قلبه فشعر معه بمزيد من الراحة والسكينة.

أعاد عقارب الزمن إلى لحظتها الحقيقية، وقام من فوره إلى مكتبته الصغيرة، وأخرج من مكان مميز فيها نسخة ثانية من المهر، كتاب الله الذي رغبا فيه حكماً لحياتهما المشتركة، قلب صفحاته وبدأ يرتل بصوت شجي بعض الآيات التي كانت تلامس شغاف قلبه، ويحس في معانيها الشفاء والرحمة:

﴿ مَا أَصَابَ من مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾.

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

وتثاقلت لحظات تلك الليلة حتى وصلت به إلى جوف الليل الأخير دون أن يتسلل إلى عينيه النوم فقد كان لا يفتأ يرتل في كتاب الله.

ومع تنفس الصبح، وانبلاج النور من الأفق الشرقي أحس بقبس من الضوء يصافح وجهه المتعب من السهر، وشعر بخيوطه المشعة تلج إلى أعماق نفسه وتبث فيها المزيد من الأمل.. ومن الأمل انبثقت ابتسامة الرضا.. ابتسامة كانت أقوى من المرض.. ابتسامة ملأت جسده حياة وعزيمة.

obeikandi.com

السطر قبل الأخير في القصة

انطلقت أصوات الزغاريد إلى الفضاء الرحب، وتردد رجعها في مسـامع الفرح، فأيقظته من غفوته الطويلة، وخرج مشرقاً من خدره المزخرف، وطار في المـكان بأجنحة زاهية، فأخذ المكان كامل زينته، وكأنه اسـتحال إلى لوحـة بديعة تأنق في اختيـار ألوانها البهيجة رسـام حاذق.. فالأضواء ألوان.. والأزهار ألوان.. والأضواء والأزهار للفرح صنوان.

وتغلغل دفء أشـعة الفرح السحرية إلى أفئدة الحضور، فتألقت الأسـارير سـروراً وبهجة، وصدحـت الحناجر بالأهازيـج الندية، وتشـابكت أصابع الرجال، واهتزت الأرض تحـت ضربات أقدامهم الراقصـة، باعثة مـن التراب عبقاً مميزاً لقطـرات الربيع ممزوجة بدمـاء الخراف التـي انتفضت مذبوحة قبـل أن تنضج لحومها في القدور التي نصبت فوق نيران الحطب في يوم الفرح والوليمة.

وخرج العريس على استحياء مثل شمس طال احتجابها، وتناثرت عليه مثل زهور الياسمين كلمات التهنئة والتبريك التي تدفقت بصفاء من قلوب المحبين قبل ألسنتهم:

ـ بارك الله لـك وبارك عليك.. جمع اللـه بينكما بخير وأخرج منكما الكثير الطيب.. ليهنئك زفافك يا طبيبنا الغالي...

لم تفارقه الابتسامة أبداً وهو يستقبل المهنئين، وهي الابتسامة ذاتها التي صبت في كيانه دفقة أمل عجيبة عندما رآها مشرقة على وجه تلك الأم الفقيرة وعلى مباسم أطفالها اليتامى فرحاً بصدقته، واستحالت بعدها نفسه إلى مرآة صافية صقيلة عكست إشراقة تلك الابتسامة على مُحَيّاه، ورسمت أشعتها السحرية على شفتيه ابتسامة طمأنينة ورضا ملأته يقيناً أن الإحساس بالآخر، وشد عَضُدَهُ في محنته ولو بابتسامة في وجهه المتعب، هو الذي يعطي العلاقة الإنسانية نكهتها الحقيقية الطيبة.

اغرورقت عيناه وهو يشاهد أفراد أسرته وهم يضمونه بنظراتهم الحانية، وقد ملأت مناسبة زفافه قلوبهم بفرح غامر، كانوا يقفون بجواره يستقبلون معه الضيوف، ويصافحون الأيدي الممدودة، ويردون على التهنئة والتبريك بالشكر والترحاب. وحمد الله تعالى أن أعانه على مواراة محنته عنهم، وأنه لم يفجع قلوبهم بمعرفة حقيقة مرضه الخبيث.

وتنسمت روحه مثل نسيم هانئ عذب نعمة اللطف والرحمة.. وهل في اللطف ما هو أعظم من رؤية هذه الأيدي الممدودة وهي تصافح وتهنئ وتبارك في دار الفرح، بدلاً من أن تمتد معزية ومواسية في دار العزاء.. وهل في اللطف ما هو أعظم من رؤية دموع الفرح في المآقي، بدلاً من رؤية دموع الحزن والفجيعة..؟!

السطر الأول في القصة...!

ربما عجبت قارئي الكريم من العنوان أعلى هذه الصفحة، وتساءلت بينك وبين نفسك: لماذا السطر الأول والقصة قد أتت على نهايتها تقريباً، وكيف يستقيم ذلك دون ذكر السطر الأخير في هذه القصة؟!

والجواب ببساطة، إن السبب الذي دفعني لاختيار هذا العنوان في هذا المكان من القصة، هو أن أمر هذه القصة مختلف عن أمر كثيرٍ من القصص التي جرت العادة أن ينتهي سطرها الأخير نهاية تدغدغ عواطف القارئ وتثلج صدره، ليغلق بعدها الغلاف الأخير للقصة، وهو قرير العين هانيها، وقد اطمئن باله على النهاية السعيدة التي آل إليها أبطال القصة.

إن قصة (في انتظار معجزة) التي تتصفح كلماتها في هذه اللحظة، قصة تجربة إنسانية حقيقية، انطوت على خارقة من خوارق اللطف الإلهي، ولكنها أيضاً انطوت على سر غريب.. سأدنيك منه على التدرج، وسأكشف لك الغطاء عن حقيقته في اللحظة المناسبة!

قصة (في انتظار معجزة) يمكن تقسيمها الآن إلى شطرين، شطر ماض وشطر حاضر.. وثمة شطر ثالث غير منظور، وأعني به المستقبل، أردته بارقة أمل لكل مبتلى، ولكن سأرجئ الحديث عنه إلى وقته الملائم.

Obeikandi.com

بدأت بالشـطر الماضي من القصة، وعدت القهقرى ثلاثين عاماً خلت من كتابة هـذه الكلمات.. يومها كان عيسى بطل القصة في الرابعة والعشرين من عمره، وعيسى ليس اسماً وهمياً نسجته من الخيال الأدبي، بل هو الاسم الحقيقي لبطل هذه القصة الحقيقية!

لقد لبثت مدة من الزمن أقلِّبُ الرأي بين الإحجام عن ذكر الاسم الحقيقي لبطل هذه القصة، والإقدام على ذكره، وذلك لسبب بسيط، وهو أنني بمجرد البوح باسمه الأول، أكون قد صرحت بشكل غير مباشر باسمه الثلاثي الكامل..! وقبل أن تستبق الجواب، وتطلب مني تفسيراً لهذا اللغز.. أؤكد لك بأنك ستكتشف الحل بمفردك، وبلا أدنى مشقة، ربما بعد عشرة أسطر من هذا السطر!

المهم في الأمر، أن الذي حفزني على البوح والتصريح باسم بطل القصة الحقيقي ووضعه بين أيدي القراء، بالرغم من اعتراضه هو شخصياً على ذلك، رغبة بالغة مني في التأكيد على أن أحداث هذه القصة بأدق حذافيرها حقيقية، عاشها عيسى بكل ذرة من حواسه ومشاعره، كما عايشتها أنا كاتب هذه القصة.. ولكن، صدقوني.. من دون أن أدري حينها عن تفاصيلها الحقيقية المؤلمة أي شيء!

وقبل أن تتهمني قارئي الكريم بأنني بالغت في سوق الألغاز لرفع جرعة الإثارة والفضول لديك، أرجو منك الآن أن تستعد للحظة رفع الستار عن الجانب المستور من القصة، أو بلغة أهل المسرح (ما وراء الكواليس)، الذي كتمته عنك منذ بداية القصة لغاية في نفسي:

obeikandi.com

أنا عدنان زيــدان المرزوقي كاتب قصة (فــي انتظار معجزة).. أشــهد الله تعالــى، وأنا ولله الحمد، مكتمل الصحــة، موفور القدرة الذهنية، أن المدعو عيسى، بطل قصة (في انتظار معجزة)، هو أخي في الدم.. شقيقي الكبير.. ابن أمي وأبي..!

ولعل العجب قد زايلك الآن قارئي الكريم، وأدركت سبب ادعائي الســابق بأنني عايشــت هذه القصة المؤثرة، ولكــن من دون أن أدري حينها عن تفاصيلها الحقيقية المؤلمة أي شيء!

نعم، لقد كنت أجهل تفاصيل مرض شــقيقي الكبير رغم أننا كنا نعيش ســوية وتحت ســقف واحد. وأَنَّى لــي أن أعلم حقيقة مرضه الخبيث وقد أبقى على سره حبيس صدره، وقرر بنقاء سريرته وصفاء روحه أن يحتمل العذاب وحده رأفة بكل الذين أحبهم وأحبوه؟

يومها كنت طالباً على باب الامتحانات النهائية لشــهادة الثانوية العامة، ولهذا الســبب حرص أخي عيسى أشــد الحرص على أن لا يتناهى إلى علمي أنا بالذات أي شيء عن حقيقة مرضه.. وأصدقكم القــول، إنني لم أعــرف بحقيقة مرض أخي إلا بعــد عقد كامل من الزمــن، عندما زارني في العاصمــة الكرواتية التي كنت قد قصدتها للدراسة، وأذكر أنه قال لي عندما شاهد ملامح الحزن والتأثر تظلل وجهي لدى سماعي منه خبر مرضه:

- أبعــد عقد من الزمن كل هــذا التأثر، فكيف لو عرفت حينها بحقيقة المرض وخطورته..؟!

و الآن سأعمد قارئي الكريم إلى هذا التصريح المثير لجعله توطئة للحديث عن الشطر الثاني من القصة، وأعني به الشطر الحاضر.

إن أخي الدكتور عيسى، وبعد ثلاثة عقود ونيف من تلك الصدقة الدواء التي أزهرت في قرارة روحه ابتسامةً أينعت وآتت أكلها الطيبة طمأنينــة وأملاً، مازال إلى هذه اللحظــة - بفضل الله تعالى ومنته - حــي يرزق، يشــترك في البنيان الذي أسســه على تقــوى من الله ورضوان مع زوجته (هناء)، ذات الموقف الإيماني العجب؛ والتي حظي بنصيب وافر من اسمها، ولديهما الآن - ما شاء الله.. لا قوَّةَ إلاَّ بالله - ثمانية من الأولاد، البكر من بينهم طبيب بشري أنهى السنة الثانية من سنوات الاختصاص الطبي في الجراحة العظمية.

Obeikandi.com

وماذا بعد؟

لقـــد ألقت تلك الجملة الحمراء بعيســـى فـــي غيابة جب عميق قبع في ظلمته وحيداً وصابرا .. في انتظار أن يحســـن به ربه ويأتيه بالفرج.. في انتظار أن يدلي وارد الطب بدلوه ويخرجه من غيابة جب مرضه العضال.. في انتظار معجزة.. معجزة تكشف عنه ما مسه من ضر.. وعندما عجز وارد الطب من أن يدلي بدلوه ويخرجه من غيابة الجـــب، امتدت إليه برفق يد العناية الربانية الحانية، وأرشـــدته إلى الدواء الناجع لمرضه بعد أن فشلت أسباب البشر، وحدثت المعجزة.. وأحسن به ربه وأبرأه من مرضه..

قارئي الكريم:

الشطر الثالث والأخير من قصة (في انتظار معجزة) أردته بارقة أمل لكل مبتلى.. فإذا أصابك الله تعالى بشيء من المرض، لا حيلة لك في رده أو اتقائه، وبدأت الدوران في فلك لحظة حاسمة في حياتك، وحزبتك الشـــدة، بعد أن رفع الطب يديه عجزاً واستسلاماً، وفشلت أسبابه التي أُمرنا أن نأخذ بها في العلاج.. ورأيت مبلغ ما في قصة عيســـى من قصتك، فافزع بصدق إلى الله، ولا تجزع.. واعلم أن باب الجب الذي قبع عيســـى في غيابته صابراً لـــم يغلق يوماً.. ولن يغلق أبـــداً.. وإنما أنت غطاء جبك.. أنت الـــذي يغلق بصيرته فلا يلتقط

الدلو.. وأنــت الذي يفتحها.. فتمتد إليه اليــد الحانية التي امتدت برفق إلى عيســى في كربته، فتدلي بدلوها من جديد، وتخرجك من غيابة الجب.. ويحسن بك اللطيف بعباده ويأتيك بالشفاء والفرج.

obeikandi.com

القصة الثانية

الرغيف القاتل

حين تتحول نفوس بشـــرية في حرب مـــن حروب البشـــر إلى وحوش مفترســـة تنهـــش بأنياب قاطعة لا تعـــرف الرحمة.. تنهش الجار ذي القربى قبل الجار الجنب.. وتنهش الصاحب ذي القربى قبل الصاحب بالجنب..

فهل تســـتطيع دلالة قصة قصيرة أن تكفيك مؤونة الخوض في تفاصيل الجواب على سؤال حائر:

مـــا الـــذي رد تلـــك النفوس أســـفل سافلين وقد خلقها الله في أحسن تقويم؟

obeikandi.com

obeikandl.com

قصة القصة

بعد وصول أخبار المجزرة الرهيبة التي أزهقت آلاف الأرواح من سكان البوسنة والهرسك المسلمين.. ثمة سؤال حائر كان الأصدقاء يتوجهون به إلي بحكم معرفتي عن كثب لأحوال تلك البلاد التي أقمت في ربوعها ما يقرب العقد من الزمن بقصد الدراسة والعمل.. وذلك السؤال باختصار هو:

ما الذي حدث لتلك النفوس من الصرب.. وكيف تحولت بغتة إلى وحوش مفترسة تنهش بأنياب قاطعة لا تعرف الرحمة؟

ولمعت في ذهني قصة عادة تليدة هي أقرب للخيال.. ولكنها حقيقة. سمعتها من أديب كبير من أدباء (يوغسلافيا)، وأكد لي أنها كانت سائدة بين السكان الصرب في منطقة من مناطق الجبل الأسود إلى عهد قريب، وذهب ضحية تلك العادة العجيبة الكثير من المسنين، وبعض الزوجات الخائنات لسرير الزوجية. وخطر لي صياغة الكلام المقتضب لصديقي الأديب عن تلك العادة على شكل قصة قصيرة.. قصة تكفيني دلالتها مؤونة الخوض في تفاصيل الجواب على ذلك السؤال الحائر.

وهكذا كان.. وبالرغم من أن صياغة قصة (الرغيف القاتل) لم يكن أمراً يسيراً، واستغرق مني وقت كتابتها شهوراً عديدة، إلا أن

obeikandi.com

مشـــاركتي في مســـابقة اتحاد الكتاب العرب للقصة القصيرة، وفوز القصة بالجائزة الثانية في المسابقة، أسلاني كل ذلك العناء، ومنحني الحافز للمثابرة على كتابة القصص التي تلتها بعد ذلك.

صوَّب نظـــره ثابتاً لا يكاد يطرف، ودارت بذهنه خواطر شـــتى وهو يســـير على هذا الدرب الجبلي الضيـــق الذي أطلق عليه أهالي (كامينتســـا) القرية الجبلية النائية في أقاصي صربيا، اســـم (درب الرغيف القاتل). واقترن اســـمه في ذاكرة النـــاس هناك بعادة تليدةٍ درج على نهجها ســـكان القرية.. عادة هي أقرب إلى الخيال.. ولكنها عادة حقيقية!

مرات لا يحصيها العد صعد هـــذا الدرب الملتوي، وتعفر بترابه الذي كانت تثيره بأقدامها قطعان الماشـــية التي استرعاه إياها كاهن القريـــة وهي ترافقـــه بثغائها ممزوجـــاً بطنين الأجـــراس الصغيرة المتدليـــة من أعناقها.. ومرات لا يحصيها العد أيضاً، نحا إلى جانب هـــذا الدرب، ونصب فخاخه البدائية وظلَّ ســـحابة يومه يرقبها من مكمن له قريب وهو يمنّي نفســـه بصيد وفيـــرٍ من الطيور الجبلية.. ومع ذلك أحسَّ تواً بأن هذا الدرب الذي ســـلخ عليه ســـاعات طويلة من عمره يبدو له موحشـــاً ومخيفاً لا يكاد ينتهي أمامه.. وأن صمتاً جنائزياً ألقى بظلاله القاتمة على الأشـــياء مـــن حوله فصبغها بلون كئيب تغلغل في مكنون نفسه القلقة وحرّض فيها سؤالاً لجوجاً نشب في ذهنه على كرهٍ منه منذ بداية الدرب وأبى أن ينصرف عنه: «**تُرى**

أكان محقاً في امتثاله لتلك العادة.. أم كان رضوخه لها خطيئة لا تغتفر؟!».

دفعه السؤال للتأمل من جديد في شأن نفسه، وفيما هو مقدم عليه من الأمر.. وطَوَّف بأفكاره يستحضر صوراً مختارة من الماضي القريب تعيد إلى نفسه الثقة التي بدأ يفقدها رويداً رويداً، طافت بذهنه صورة زوجته، وتمثلها وهي جاثية أمام المعجن تخلط وتَلُتُّ بجمع كفيها النحيلتين عجين رغيفٍ من دقيق الذرة الخشن، لتقلعه بعد ذلك من موقد الحطب رغيفاً نافجاً أشبه برحيةٍ صغيرةٍ.. وما زال رجع كلماتها المتذمرة يتردد في أذنيه:

«إلى متى يقاسمنا هذا العجوز السقيم رغيف الخبز.. إلى متى الانتظار؟».

تذكر لمزات أترابه من شباب القرية وهمساتهم له:

«لقد عاش بما فيه الكفاية.. آن لك أن تصعد به إلى الجبل.. هل تعوزك الجرأة والرجولة.. لست الأول ولن تكون الأخير الذي يمتثل لهذا العرف».

وهكذا ظل في حديث عميق مع نفسه على أن انتهى به الدرب إلى دير حجري مهجور، فنحى عن منكبه الذي اعتراه الخدر معزقة للتراب، ومطرقة حديدية ثقيلة ناء بحملها طوال الطريق.. وبسط أصابع كفه المتشنجة التي أمسكت بتلابيب صرة قماشية وضعها على

الأرض وأطرق ملياً ينظر دون أن يهتز له جفن إلى رغيف الخبز الذي جُمع فيها وشُدَّ عليه.. رغيف الحياة.. رغيف الموت..

رفع رأسه بتثاقل، وأرسل نظراته الساهمة إلى الخلف جهة والده الـــذي توكأ بكلتا كفيه الذابلتين على عكازه الخشـــبي ودبَّ بخطواتٍ ثقيلةٍ متعثرةٍ، وبأنفاسٍ متلاحقةٍ تكاد تمزق صدره محاولاً اللحاق به.. كان يبدو كالشـــبح وقد اختفى جسده الهزيل داخل معطف عسكري رث وقبعة مخروطية متسخة من الصوف الأبيض غطت ما تبقى من شعر رأسه الأشيب.

أثار منظر والده الهرم في نفســـه شيئاً من الشفقة.. ربما كانت بقيت مشاعر إنسانية أفلتت من بين براثن تلك العادة الشيطانية التي تمخضت بها سنوات عجاف حطت رحالها في تلك البقعة من العالم، فأيبســـت الأرض، وحجرت القلوب، وأصبحت بعـــد ذلك عرفاً قبله الناس هناك وأقروا به رغم قساوته.

تنازعته مشاعر الحيرة والقلق.. وعاد ذلك السؤال اللجوج يعتمل في خاطره، ويوقظ فيه نائم أحاسيس إنسانية:

«مـــاذا لـــو تمرد على هذا العرف اللئيـــم؟ ماذا لو عاد به من حيث أتيا دون أن يقضي ذلك الأمر الرهيب..؟».

أحس بالوهن يســـري في أوصاله.. وتملكه شـــعور غامض بأن قناع تلك العادة الشيطانية التي استتر به، واستمد منه الثقة بصواب

حكمــه وبدء خطوة بعد خطوة ينزاح عن بصيرته، ويســفر عن دناءة التبرير للجريمة التي عزم عليها. زفر بحرقة، وقال في سره:

- القتل.. لا.. هذا شيء فظيع.. إنه والدي رغم كل شيء..

ضجت داخل أعماقه ضحكات هازئة.. وبدأ شــيطان ذو صولة داخل نفسه يبرر له سوء عمله ويزينه:

«علــى رسـلك يــا صــاح.. أتتمــرد علــى عــادة درج عليهــا الآبــاء والأجــداد؟ أترجــع إلــى القرية خائبــاً؟ ماذا يقول أترابك من شــباب القرية وقد توسموا فيك الرجولة؟ ماذا تقول زوجتك وهي الآن أمام البيت تنتظر عودتك وحيداً بفارغ الصبر؟ لا تتردد.. ولا تبتئس كثيراً ففي موته رحمة لكم جميعا.. رحمة له من العذاب والشقاء.. ورحمة لك ولزوجتك من ظله الثقيل..» .

أحس أن رأســه تحول إلى مســاحة مترامية الأبعاد من الجليد هامــت فيهــا الخواطر تائهة علــى غير هدى.. لكــم تمنى في تلك اللحظــات لو أنه لم يكبر.. تمنــى لو أنه عاد طفلاً صغيراً إلى حجر أبيه.

لجأ إلى زجاجة من الخمرة الشعبية كان يحملها معه.. عب منها حتى الثمالة.. تبادل نظرات قصيرة مع والده الذي مرَ بمحاذاته دون أن ينبس ببنت شفةٍ.. قرر أمراً لارجعة فيه.. أمسك بالمعزقة.. أبتعد عن والده عدة خطوات، وهو يهز رأسه لا شعورياً، ويتمتم كالمحموم:

- في موته رحمة لنا جميعاً.. في موته رحمة لنا جميعاً..

ثم شرع بحفر القبر.

أسند الأب ظهره الذي حنته الأيام إلى جدار هذا البناء الحجري القديم، قوس ساقيه الضامرتين اللتين أعياهما طول المسير، وثبت بين قدميه نهاية عكازه الخشبي، وأسند قبضته العقفاء، التي لوت الليالي كفه عليها إلى منكبه الهش.. وبعد أن سكنت أنفاسه المتلاحقة قليلاً أخرج من جيب معطفه المهلهل علبة تبغ معدنية علاها الصدأ فأحال لونها إلى الحمرة الباهتة.. وقرب بيد تهرأ أديمها، جانب العلبة الصقيل من عينيه الغائرتين في محجريهما تحت جبهته البارزة، فانعكس على صفحتها المتموجة خيال وجهه الكالح النحيل.. وبدا له شاربه الكث المتهدل الذي لم يعرف التشذيب منذ زمن ليس بالقصير مثل غصن هرم يوشك على السقوط.

أبعد العلبة عن عينيه فزعاً وكأنه شاهد بقايا وجه بشري.. فتح غطاءها بصعوبة بالغة وأخرج من داخلها ورقة تبغ صبغتها الرطوبة بلون عفني.. أمسك بها بين الإبهام والسبابة، وفرش فوقها قليلاً من التبغ الشائب.. لفها بأصابع مرتجفة، ثم بللها بلسانه بعد أن قضم طرفها بلثته المقروحة.. أشعلها بعد محاولات متعبة بشرارة من زند قداحته البسيطة.. ابتلع نفساً عميقاً من دخانها الرديء ليأخذه بعدها سعال شديد.. وبدا أنفه المفلطح مثل مدخنة صغيرة والدخان يخرج من فتحتيه كثيفاً مثل سحابة صغيرة تدفعها نسمة

مــن الريح الجبلية الباردة وتبددها فوق هذا الوادي الســحيق.. كان حلم العودة يراوده مع كل ســحابة دخان ينفثها ويتلاشــى الحلم كلما تبددت السحابة ويذهب كدخان لفافته أدراج الرياح.

أشرف على القرية من شــاهق، وودعها بنظراته اليائسة الوداع الأخير، فبدت له بيوتها بعيدة متناثرة قانعة بسفح هذا الجبل الأجرد بعد أن استعصى عليها ارتقاؤه.

جابت نظراته طرف القرية الشرقي، واستقرت عند بيت صغير متواضع فيه اســتقبلت رئتاه الصغيرتان أول نســمة هــواء.. مطلقاً صرخته الأولى.. وتحت ســقفه الوطيء سلخ من عمره نيفاً وثمانين ســنة في معيشــة ضنكة تجرع في نهايتها من كأس الخيبة علقماً.. الزوجة غيبها في التراب منذ ســنتين.. وانفض الأولاد من حوله، ولم يعد يلقاهم إلا في الأحايين.. وشعر أن شيخوخته المحزنة غدت مثل عشــبةٍ طفيليةٍ لا جدوى من بقائها.. وباتت تشــكل عبئاً ثقيلاً على كاهل ولده الأصغر الذي كان يشــاركه العيش بين جدران هذا البيت مع زوجته العاقر.. مشــاعر ســوداء كان يقرؤها فــي تلك النظرات المتبادلة بين ولــده وزوجته المتأففة.. وفي تلميحاتٍ له منهما أحياناً، وتصريحات أحياناً أخرى كانت تلهب بسياطها اللاذعة كبرياءه المنزوية في أعماق نفســه مع كل جرعة ماء كان يرتشــفها ليمسك به رمقه.. ومع كل كسرة من الخبز البائت يمد يده إليها ليقيم بها أوده.

وفي ذات البيت أمضى البارحة ليلته الأخيرة.. لم يغمض له جفن

وقد تيقن أن ســاعة عمره الرملية أوشكت حباتها الأخيرة على النفاذ بعد أن أبلغه "فلذة كبده"حكمه المبرم عليه.. حكماً سوغت له الحق في إصداره تلك العادة الشيطانية.. حكم إعدام بالرغيف القاتل.

بقي الأب شاخص البصر جهة بيته الذي غادره صباح هذا اليوم للمرة الأخيرة.. بينما كان رأســه المكدود مستباحاً من شتات ذكرياتٍ ســوداء متزاحمة إلى أن أخرجته من شــروده قطرات من المطر بللت قبعته الصوفية وبدأت تنزلق على غصون جبينه المقطب.. رفع رأسه ببطء ونظر إلى صفحة الســماء.. كانت تلك الغيوم الداكنة تمر فوق رأســه.. وتمطر في هدوء.. خيل إليه أنها تــذرف عنه دموع الخيبة والحزن التي انحبست في مآقيه من زمن طويل..طويل.

تناهت إلى ســمعه غمغمات ابنه المبحوحــة، فنبهته إلى وجوده قريباً منه، ووضعت حداً لتوهمه:

- **هل أنت مستعد لطقوس الوداع يا والدي العجوز..؟!**

لــم يتبين الأب معاني كلمات ابنه، الذي فرغ لتوه من حفر القبر، ومــع ذلك أدرك أن شــبح المــوت ينبثق من بين طياتهــا، وأن لحظة رحيله عن هذه الحياة قد أزفت، ولا يفصله عنها سوى بضع خطوات يخطوها نحو تلك الحفرة الرهيبة.

تملمــل الأب من مجلســه محاولاً النهــوض، فتــحامل على شــقه الأيمن، وأمســك قبضة عكازه بكف وأســند الكف الأخرى

إلــى حجـــرٍ قريب منه، وتمكــن بعد عناء من الوقــوف على قدميه والاحتفاظ بتوازنه.

ســـار بطيئاً مستســـلماً لقدره نحو مثواه الأخير.. وبقي مسمراً في مكانه دقائق طويلة.. شـــعر أنه لا يستطيع حراكاً بعد أن أشرف علــى قبره المفتــوح.. وازدحمت صور مروعة علــى عينيه.. تمثل له جسده وقد فارقته الحياة، وضمته هذه الحفرة الرهيبة جثةً هامدة.. وربما مزقتها بعد ذلك الجوارح والضباع الجائعة ولم تغادرها إلا رمة نخرة..حوَّل نظره عن قبره وقلبه يخفق في رعبٍ لم يعهده من قبل.. رمق ابنه بنظرة طافحة بالمرارة والحسرة.. كان ينتصب أمامه مزموم الشـــفتين.. منتفخ الوجنتين.. زائغ العينين وقد فعلت الخمرة فيهما ما فعلت.. وبدت لحيته كثة شعثاء، أكسبت سحنته لوناً قاتماً أضفى على قسماته الكثير من الغلظة والجمود..قسمات جلاد ينتظر تنفيذ الحكم بالضحية.

- **جلاد وضحية!**

همس الأب بصوت شبه مسموع وقد غزت ذهنه بغتة واحدة من ذكريات الحرب مع الأتراك انقضى على مرورها سنوات طويلة، ومع ذلك مازال يحفظ في ذاكرته باسم ذلك الجندي التركي:

- **توركش سنان..**

تفلت من فمه اســـم ذلك الجندي الذي وقع في قبضته أسيراً..

كان يتوسل إليه في نظراته.. ومع ذلك فصل رأسه عن جسده بجسارة الجندي الصربي دون أن تختلج في وجهه عضلة واحدة.. ولم يخطر بباله قط أن الزمن سـيدور دورتـه.. وها هو الآن ضحية.. بين يدي الجلاد.. وأي جلاد؟!

مـرت لحظات طويلة تبادلا فيها النظـرات بصمت، وكأن رهبة الموقف حبست لسانيهما عن الكلام فما يدريان ماذا يقولان.. وثقلت وطأة الصمت على الأب.. فجثا على ركبتيه.. ونزع عن رأسـه قبعته المخروطيـة ووضعها جانب عكازه.. رفع بصـره جهة ابنه، الذي ظل وجهه جامداً وكأنه ينظر إلى إنسـان لم يره من قبل، وخاطبه بصوتٍ خفيض:

- **هيا يا بني فالموت أرحم من عذاب الانتظار..**

قـرب الابن من وجه أبيه بيدين مرتعشـتين رغيف خبز أشـبه برحيـة صغيرة أخرجـه من داخل الصـرة القماشـية.. ابتلع ريقه بصعوبة.. وتعتع في كلامه وتردد:

- هل تحقد علي يا والدي العجوز لأنني سـأمكن هذا الرغيف القاتل من رأسك الحاسر..؟

اغرورقت عيناه المحزونتان بالدموع وخاطب ابنه بصوتٍ يختلج:

- **أنا لا أحقد عليك يا بني.. بل أرثي لحالنا.. رغيف الخبز هذا لا ذنـب لـه كـي يحمل عنا الآثـام والخطايـا.. في أعماقنـا نعلم أننا**

obeikandl.com

نكذب أنفسنا.. عجل تنفيذ ما صممت عليه يا بني قبل أن ينفد زادي من الصبر.. عجل يا بني.. وليرحمنا الرب.. ليرحمنا الرب..

انحنــى الأب نحو الأرض.. حفن حفنة من تــراب القبر المبلل.. شــبك عليها أصابع كفيه كطيرين مقيديــن. ضم ذراعيه إلى صدره وأغمض عينيه.. تحوّل جسده إلى كومة من اللحم تكورت على بعضها وقد أحس بثقل رغيف الخبز على سندان رأسه الحاسر.. تقبض عنقه دون إرادة منه مستشــعراً يدي ابنه وقــد ارتفعتا بالمطرقة الحديدية فوق رأسه.. وفي لحظة خاطفة هوت المطرقة على الرغيف.. انتفض كخروف مذبوح.. تفوه بكلمة واحدة فقط:

لماذا..؟!

ولفظ أنفاسه الأخيرة.

oobeikandi.com

obeikandl.com

صدى القصة

كتب الأستاذ وليد مدفعي في العدد (٥١٧) من جريدة الأسبوع الأدبي التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب في دمشق، دراسة حول قصة «الرغيف القاتل»، القصة التي نالت الجائزة الثانية في مسابقة القصة القصيرة عام ١٩٩٥، والتي نُشرت في نفس العدد، وجاء في هذه الدراسة ما يلي:

""نواجه في أقصوصة (الرغيف القاتل) لعدنان المرزوقي عملاً ابداعياً يميز الكتاب المحترفين. ويسرد الكاتب لنا حكاية الأقصوصة من بداية النقطة الحرجة راصداً بطل الحكاية الذي سيقدم على تكرار عادة أهالي قرية (كامينتسا) الجبلية في أقاصي صربيا حين يصطحب الابن أباه، وفي ذهنه عبارة زوجته " إلى متى يقاسمنا العجوز السقيم رغيف الخبز ". ويقود أباه إلى درب الرغيف القاتل إلى دير حجري مهجور، حيث يحفر قبره ثم يضع على رأسه رغيف خبز سميك ويطرق الرغيف بمطرقة حديدية ثقيلة ويعود وحيداً.

نحن أمام محترف يقص الحكاية على لسان الراوي من الخارج ولكنه متمكن يستطيع أن يتحول متى شاء إلى أسلوب المتكلم بالتعبير المباشر على لسان البطل برصد الحوار الداخلي بين النفس وفجورها بين النفس وتقواها ... (زفر بحرقة وقال في سره: " القتل.. لا.. هذا شيء فظيع.. إنه والدي رغم كل شيء.. ").

ولا ينســى وهو يســرد دقيقة إثر دقيقة تقدم الحدث أن يشرك الطبيعة من حول الابن والأب وأن يشــرك ذكريات العمر وتصبح كلها مريــرة في موقف كهذا . وينتقل بســهولة ليصف موقع الأب من هذه العادة: "وفي ذات البيت أمضى البارحة ليلته الأخيرة.. ولم يغمض له جفن وقد تيقن أن ســاعة عمره الرملية أوشكت حباتها الأخيرة على النفاد بعد أن أبلغه " فلذة كبده " حكمه المبرم عليه.. حكماً ســوغت لــه الحق في إصداره تلك العادة الشــيطانية.. حكم إعدام بالرغيف القاتل " .

وتبــرز روعة هذا العمل حين يتذكــر الأب ما فعله في حياته مع جندي تركي أســير تحت شــعار المحارب الصربي الجســور، وهذه الذكرى لا تدين الأب ولكنها تدين صربيا كلها .

«هيا يا بني فالموت أرحم من عذاب القبر».

اللغــة منتقاة والألفاظ مختارة لأداء أفضل المعاني وإعطاء أغنى الصور، مع مهارة في توزيع التنقيــط لإنارة العبارات وزيادة تأثيرها على النفس.

القصة الثالثة

سكين الحقد

حين تنطلــق قاطرة شــيطانية تتفرد بزمام قيادها مشــاعر النقمــة والكراهية فــي رحلة داخل نفق مظلــم يفضي بها إلى مســتنقع الأحقــاد الآســن.. وترمى هناك بعقل بشري عار من رداء إنسانيته.. ليغوص بسوءته القذره في ذلك المستنقع الآسن...

تــرى هل تســتطيع قصــة قصيرة أن تتجاوز عجزهــا، ودورها كشــاهد للتاريخ فحســب.. وأن تضع العصــي في عجلات تلك القاطرة، وتعرقل انطلاق رحلة جديدة من رحلاتها الرهيبة؟

obeikandl.com

obeikandl.com

قصة القصة

في عام ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م تم تحريك مستنقع الأحقاد الإثنية والدينية الراكد على أرض ما كان يسمى (يوغوسلافيا)، وتحريك هذا المستنقع الآسن تم بفعل أيادٍ شيطانية انتظرت فرصتها طويلاً، وبدأت مجزرة رهيبة أزهقت الآلاف من أرواح سـكان البوسنة والهرسك المسلمين، وأذكر وقتها أنني تلقيت اتصالاً هاتفياً من رئيس تحرير جريدة عربية تصـدر في مدينة لوس أنجلوس، وطلب مني كتابة تحقيق مفصل عن مأساة البوسنة والهرسك.

وعرض لي في أثناء كتابتي للتحقيق الصحفي عارض، كان سبباً رئيسـاً في أنني يممت قلمي شـطر القصة القصيرة. وسأروي لكم قصة هذا العارض على شكل أقصوصة قصيرة:

لم تبد المرأة المسـلمة التـي ربما تجاوزت العقد السـادس من عمرها، أدنى رغبة في الحديث إلى مراسـل محطة (CNN) الذي قرب إليها المسجلة وبادرها بسؤال عن قصتها.. ولكنها بقيت ساهمة عن سؤاله بعض الوقت ذاهلة عما يدور من حولها.

وخمنت وأنا أتابع مشـهد المقابلة أمام التلفاز أن قصة مأساوية تظطـرم نيرانها في أعماق هـذه المرأة المحزونة حتـى بقيت لائذة بالصمت.. معرضة عن الحديث.

تفرســت مع (الكاميرا) في تعابير وجههـا الذي غضنته الأيام، وحفرت التجاعيد على معالمه خطوطاً شاحبة، ظللها الحزن والأسى وصدق تخمينـي عندما أبعـدت راحتيها عن وجههـا النحيل الذي أحاط به غطاء الرأس الأبيض الواسـع الذي يسـميه أهل البوسنة (مارامه)، وأرسـلت نظراتها الواهنة إلـى الأفق البعيد. خارج حدود مخيـم اللاجئين الـذي قذفهم إعصار الحقد إلى شـاطئه الغريب، وغمغمت بنبرة طافحة بالحزن والعبرات، وروت قصتها، بل مأساتها الذي صعقني سـماع تفاصيلها إلى درجة الذهول.. وولدت على إثر ذلك العارض فكرة قصة (سـكين الحقد)، القصة الأولى من قصص هذه المجموعة، التي حظيت بعد ذلك بشـرف نشـرها في صحيفة (المسلمون) التي تصدرها مؤسسة (الشرق الأوسط).

كانـت الحياة في القرية تسـير في صباح ذلك اليـوم الربيعي كعادتها ببساطة وهدوء، فالأبصار كانت ترنو إلى الأرض قبيل موسم القطـاف وهي تنثر فيض غلالهـا، وتتفتق عن حبات الذرة الذهبية، وتزين أغصان الأشـجار المدلاة بحبات الخوخ التي نضجت وبشـرت قطراتها بدنان كثيرة من خمر الراكيا الشـعبي، يمتص دخلها الوفير تعب سـاعات طويلة من الجهد والمكابدة، ويرسم ابتسامة رضا على الوجوه الطافحة بالعرق، وينفـض الكرى عن جفون ألف حلم جميل وحلم بعد سبات شتوي طويل في رؤوس أهل القرية.

ولم يكن أهل القرية يدركون وهم يسـتقبلون بشائر ذلك الصباح

أن شـــبح الموت يحوم فوق قريتهم.. وأن كارثة ســـتحل هذه الليلة في كل بيـــت من بيوتها، وتطول كل ذي كبد.. فرغم التحركات المريبة في الآونـــة الأخيرة التي كانت تدور في القـــرى الصربية المجاورة، والتي كانت تثير فضولهم أكثر من أن تثير هلعهم، لم يكن ثمة ما يشير إلى أن الأيـــام القادمة حبلى بالمفاجآت الرهيبة لهذه القرية البوســـنوية المســـلمة المتاخمة للحدود الصربية الغربية.. وأن الأحداث ســـتموج بغتة من حول أهلها الغافلين، فتشتت شملهم، وتخنق صارختهم!

نعـــم، لم يدرك أهل القرية وهـــم يدخلون في أفياء أرضهم التي كان عبقهـــا يعطر حياتهم.. أن إعصار الحقد ســـيجتث جذورهم من تلك الأرض التي أُشـــربت قلوبُهم حبَّها، وأن أمواجه العاتية ستقذف بهم بعيداً عنها كالأعشاب الطافية إلى ملاجىء وشواطىء غريبة لم يعهدوها من قبل!

ولم يكن (حســـن) يدرك صباح ذلك اليوم أيضاً، وضحكاته تعلو، وهو يعاقر (الراكيا) في بيته، ويســـامر نديمه الصربي (ميلوش).. أن ضحكاته تلك ربما كانت الأخيرة!

وكيف له أن يدرك ذلك وصداقته وهو المســـلم مع جاره ونديمه (ميلوش) الصربي مثلها مثل الكثير من جســـور الصداقة التي تربط أهل هـــذه القرية بجوارهم مـــن الصرب الذين هم بـــين ظهرانيهم، وأولئك في القرى الصربية المجاورة..؟

صداقــة قديمة ترجع إلى أيام الحــرب العالمية الثانية والنضال جنباً إلى جنب ضد المحتل النازي في صفوف جيش التحرير الشيوعي (بارتيزان) بقيادة المارشال (تيتو).. صداقة نسي المسلمون من خلالها أحقاد الصرب القديمة، ومجازرهم التي راح ضحيتها الآلاف منهم.

بعد أن ودعت القرية في ذلك الغروب آخر خصلة مضيئة لملمتها الشمس من شعرها المحنّى وداع رجاء وأمل، وأرخى الليل سدوله في هدوء وســكينة.. وغرقت القرية مــع تقدم الوقت في صمت الظلام، كانت سحب قاتمة من الأحقاد تقترب رويداً رويداً من سماء القرية.. وكان أهل القرية المســلمة على موعد مع حــدث جلل في هذه الليلة الطويلة، الحالكة السواد.. حدثٌ أُحكم تدبيره بروّية ودهاء!

فجــأة بدأت أصوات غريبة لم تألفها أســماع أهــل القرية من قبل تمزق صمت الليل.. فحيح أفاع بشــرية مترعة بالســموم القاتلة داهمت القرية في غفلة من أهلها المســلمين، وكأنها وصلت إليها من جوف الأرض، وأشــعلت النيران من جميع جهاتها.. هدير محركات، وأزيز طلقات يتردد رجعها هنا وهناك.. وقع أحذية ثقيلة تقرع دروب القرية الموحشــة بمســاميرها وحقدها.. أنين الأبواب المخلوعة من طرقات الأحذية تشــرخ الآذان.. نواح وصيحات استغاثة تمزق نياط القلــب يُصّعدها بين الفينة والفينة الإنســان والحيوان.. ولكن دونها أبواب أوصدها أصحابها الذين ملأ الرعب قلوبهم والذين لم يجدوا الجرأة على تخطي عتبة دورهم. بعد أن سرت بشكل مرعب بين أهل

القرية أوامر رهيبة لم يناد بها مناد، وإنما نقلتها الأسماع مباشرة عن ارتجاجات الأبواب والجدران إلى موضع الفزع في القلوب.. فذهب النواح والصياح أدراج الرياح.

الوقت يدب بطيئاً وثقيلاً، وشرنقة الخوف من المجهول تنسج خيوطها على أسرة حسن الصغيرة، وتضغط على أعناقهم مثل أنشوطة خانقة، وهم يرهفون السمع من وراء الجدران، ولا يجرؤون حتى على استرقاق النظر من نوافذ البيت التي أغلقوها بإحكام، خوفاً من رصاصة أو طعنة طائشة.. كانوا يتلقفون أدق الأصوات لوقع النعال العسكرية وهي تقترب منهم أكثر فأكثر.

عندما استسلم باب البيت المغلق مرغماً لطرقات الأحذية العسكرية وأعقاب البنادق، تحولت الأسرة الصغيرة إلى ثلاث كتل من اللحم.. بل كتلة واحدة.. شلها الرعب.. وجمد الدم في عروقها، وتسمرت أبصارهم على الباب الحديدي المفتوح على مصراعيه وهم يندفعون من خلاله كالذئاب الشرسة وهي تتوق لمهاجمة فريستها الضعيفة والولوغ في دمها.. رجال من عصابات (التشيتنك) الصربية.. مدججون بالحقد والسلاح.. وليس في وجوههم القبيحة أي معنى من المعاني الإنسانية.. وكأنهم مخلوقات متوحشة لا تمت بصلة إلى هذا الكوكب البشري.. كان شرر الحقد يتطاير من عيونهم وهي ترسل نظراتها الشيطانية صوب كل جزء من أجزاء البيت.

صاح قائدهم، وكان طويل الشعر، كث اللحية، وهو يقهقه ساخراً،

بعد أن ركل بوحشية قطة البيت الأليفة، وهي تحاول التمسح بساقه، والتحبب إليه كعادتها مع ضيوف البيت:

- أخرجوا كل الأسـلحة والأموال التي بحوزتكم، وإلا سنذبحكم ذبح الخراف يا أولاد الأتراك..

أبعد (حســن) عن صــدره زوجته وابنته (عايشــة) الحامل في شهرها الأخير والتي قدمت صباح هذا اليوم كعادتها للولادة في كنف أمها ورعايتها، وكأنه يفصل قطعتين من كبده.. وتقدم بخطوات ثقيلة ووجلة من أحدهم وقد لاح له خيط رفيع من الأمل.. وجه ذلك الرجل كان مألوفاً لهم جميعاً.. تقدم منه حســن وفي عينيه نداء اســتغاثة، وسؤال حائر تلجلج بين شفتيه:

- قـل لي بربـك أيها الصديق، ماذا أسـأنا لكم حتى نلقى هذا الجزاء؟ وما الذي يربطنا بالأتراك ونحن (سـلاف) مثلنا مثلكم في القومية، حتى تنعوتنا بأولاد الأتراك..؟

خيــط الأمل الذي توهمه حســن، كان خيط ســراب خادع في صحراء نفــس ذلك الحاقد الذي بدأ يترنح وقــد لعبت الخمرة في رأســه.. وأخذ يخور كالثور الهائج مردداً كلمات أغنية صربية قديمة تمجد ذبح الأعداء.. الطفل منهم قبل الشديد المحارب:

«تعالوا نشـحذ السـكين.. ونذبح أولاد الشـياطين.. من سـيكون الثانـي.. لأنني أنـا الأول الذي سـيلغ في دمائهم المهدورة في سـبيل صربيا..».

شرور الدنيا كلها ارتسمت على وجه ذلك الحاقد وهو يفح كلماته المسمومة.. وبدأ جسده يرتعد مثل ثعبان قاتل يتحفز للانقضاض على فريسته.. وفي لحظات خاطفة انتهى كل شيء.. (حسن) الطيب الذي كان يتأثر لمرأى دجاجة تذبح..لم تشفع له طيبته، وحُسن علاقته بجواره من أن يتلقى الطعنات القاتلة من هذا اللئيم الغادر.. وقُتل (حسن) من دون أن يدري أي جريرة اجترحها حتى استحق هذه النهاية المفجعة!

حاولت زوجة حسن البكاء وهي تلمح طيف زوجها وهو يلقي بنظراته الدامية عليها وعلى ابنتهما الوداع الأخير.. فانحبست الدموع، وتحجرت في مآقيها.. وحاولت الصراخ وإنقاذ ابنتها الوحيدة (عايشة) من بين براثنهم وهم يبقرون بطنها.. ولكنها لم تعد تَقْوى على ذلك، وخانها الصراخ.. واختلطت في تلك اللحظة العصيبة أمام سمعها وعينيها الأصوات والمرئيات، فتداخلت في رأسها استغاثة زوجها مع دوي صرخات قاتله، ورجع صرخات ابنتها الذبيحة مع ضحكات المجرمين الفاجرة، وامتزج في نظراتها الزائغة دم زوجها المسفوح مع دم ابنتها ودم حفيدها الجنين الذي لم ينج هو الآخر من نقمتهم، ومن طعنات سكاكين حقدهم التي طالته وهو في رحم أمه الجريح..لم تعد تقوى على الصراخ ولكنها بدأت الضحك بشكل مخيف تارة، والبكاء مثل طفل صغير تارة أخرى، وعندما اقتربت وهي على تلك الحالة المأساوية من ذلك القاتل الذي كان وجهه

القبيح مألوفاً لهم جميعاً، ولى هارباً هو ومن معه خارج البيت، من دون أن يغمدوا سكاكين حقدهم التي كانت تقطر من دم ضحاياهم في أغمادها النتنة.

أيها السادة الشرفاء:

ذلك الحاقد الذي سفك دم (حسن)، لم يكن سوى (ميلوش)، نديمه الصربي في صباح ذلك اليوم الأسود.. و(ميلوش) هذا الذي تخلى عن رداء إنسانيته، وغاص عارياً في مستنقع الأحقاد الآسن.. ما زال منذ قرون طويلة يذبح لسبب أو لآخر.. يذبح في الشرق.. ويذبح في الغرب.. وضحايا سكين حقده عبر القرون كلهم (حسن).. ولو اختلفت بين فترة وأخرى أسماؤهم وألوانهم!!

obeikandl.com

القصة الرابعة

سر الحفرة

حين تخدر الأوهام عقلاً بشرياً، وتنصب في خياله منارة خلبية، لا يبصر سوى وميضها الخادع، فيقصده على غير هدى..

فهل تســتطيع قصة قصيرة أن تنصب من نفسها منارة حقيقية تقصي ذلك السادر عن غيه، وترشده إلى سواء السبيل؟

obeikandl.com

obeikandl.com

قصة القصة

قصة (رجب)، قصة حقيقة، طالما سمعتها في مجالس القرية.. وهي قصة عجيبة، فيها الكثير من العَبَرات والعِبَر، ولكن، وللأمانة الأدبية أقــول، إنني لم ألتزم في خاتمة قصتي (ســر الحفــرة) تماماً بتلك الخاتمة المأساوية التي آلت إليها القصة الحقيقية كما سمعتها.

Obeikandl.com

أطلَّ رجب برأسه من النافذة الخشبية لغرفته وحدق نحو الدرب المفضي إلى طرف القرية الشرقي. لم يبد على امتداده حركة لعابر في هذا الهزيع المتأخر من الليل الذي طال كل شيء في القرية بسكون لم يكن يعكره إلا نباح الكلاب الشاردة في أزقة القرية وهي تلاحق بعضها بين الفينة والفينة.

تخطى بحذر فراش زوجته وأولاده الخمسة الذين جمعهم لحاف قطني أغبر ومشى إلى صندوق خشبي مركون في زاوية من زوايا غرفته الطينية. رفع غطاءه بهدوء حتى لا يوقظ صرير مفاصله الصدئة أسرته النائمة وأخرج كيساَ من الخيش المهلهل بداخله محفار ومعزقة وسراج زيتي.

وضع عليه عباءة صوفية لونها بلون التراب وأحكم فوق رأسه كوفية رمادية منسلة الخيطان. بحث عن علبة السجائر وأشعل واحدة منها وملأ رئتيه من سموم دخانها الرديء الذي انبعثت رائحته في جو الغرفة مهيجةً لدى أولاده النائمين حالة من السعال. أطلق رجب من صدره تنهيدة عميقة وهو يحملق في أسرته النائمة، هز رأسه وتمتم بصوت خافت:

- **الليلة سيتحقق الحلم.. الليلة سأنتصر على الحفرة.**

قبيل الفجر خرج رجب من بيته حذراً. جال ببصره ذات اليمين وذات الشمال، واستعرض في مخيلته دروب القرية التي عهد مفارقها

وخفاياها منذ زمن طويل؛ وسلك درباً متعرجة من جهة القرية الشرقية قلما طرقته الأقدام.

أدار رجـــب ظهره للقرية، وبدأت بيوتها الطينية التي تناثرت هنا وهنـــاك تبتعد عن ناظريه. حث خطـــاه متوارياً بالظلام حتى لا يراه عابر مفاجئ فيهتك بفضوله ستر بغيته التي خرج من أجلها.

لقد صحب الليل طويلاً وأنس به، فوجد فيه نعم الصاحب ونعم السمير. استكتمه ســـره فكتمه وأسدل عليه ستائر الدجى، ونثر بين نجومه المضيئة شجونه وأحلامه فأغمض عليها الليل بأجفانه وحنى عليها حنو الشفيق.

الدرب لا يكاد ينتهي أمامه، والجو من حوله يعبق برائحة اختمار الأرض العطشى ببشائر الخريف من أمطار تجمعت على طول الدرب في برك صغيرة موحلة.

ســـار رجب شارداً غافلاً عن الأشـــواك التي أدمت ساقيه وعن النـــدوب التـــي أثخنت قدميه مســـتغرقاً في هاجس قـــديم لا يريد مفارقته. حدث نفسه مثل مهوس لا يكاد يشعر بشيء من حوله، وعاد ذلك السؤال يلح على ذهنه ويطرقه طرق النجاد للصوف: هل سيكلل اليوم سنين كثيرة من البحث والحفر بالنجاح أخيراً؟

أطلق رجب زفرة حارة وهمس في نفسه مطمئناً:

«آه.. **سيتحقق.. سيتحقق**».

أخرج رجب من الكيس سراجاً زيتياً فأشعله ورفع ذبالته. جال ببصره أرجاء المكان من حوله بحثاً عن مكان الحفر. كان مضطرباً اضطراب العاشق في لقائه الأول وهو يقترب بخطوات بطيئة من المكان الذي شيد عليه صرح مستقبله؛ ومن الحلم الذي تعشق في كل خلية من خلايا عقله ولم يفارقها منذ سنين مريرة حلم العثور على الكنز المدفون.

تفل رجب على راحة اليمنى وفرك بها راحة اليسرى وشد بقبضتيه على عصا المحفار الخشبي وبدأ الحفر كآلة يدفعها محرك من لحم ودم. كان يصيخ بكل حواسه إلى كل ضربة من ضربات المحفار الذي بدا مطواعاً بين قبضتيه الخشنتين وهو يهوي به على الأرض. خواطر كثيرة كانت تدور برأسه، بينما كانت عيناه تدوران لاهثتين بحثاً عن الدليل داخل الحفرة التي كانت تتسع شيئاً فشيئاً.

تملكه الخوف من خيبة الأمل التي تجرع من كأسها في الماضي مع كل حفرة فتحها وصفعته بخوائها من تلك الصورة التي أفرد لها إطاراً مميزاً على جدار مخيلته. صورة التراب وهو ينفرج عن صندوق متخم ببريق القطع الذهبية.

حياة رجب حُفَر. الحفر غارقة في كل تفاصيل حياته، في كل لقمة خبز التقمها وكل جرعة ماء احتساها وكل نظرة إلى زوجته وأولاده. الناس يعدون أعمارهم بالسنين ورجب يحسب عمره بعدد الحفر التي حفرها. إن حجم ما حفره خلال السنين الماضية يعدل حجم وادي القرية الصغير.

مشاعر سوداء بدأت تنبثق من بين التراب الكثيف الذي أخرجه بمعولــه من الحفرة، ومعها بدأت تنداح عن مخيلته الأطياف الجميلة التي رســمها لأيامــه القادمة؛ وأحس بالوهن يتغلغــل داخل أطرافه رويداً رويداً، وللحظة راودته فكرة التراجع عن الحفر وشعر أن ضربة محفار واحدة فقط تفصله عن استحواذ اليأس التام على تفكيره.

«لن أستســلم لليأس ولن تثنيني الأوهام. سأتابع الحفر غير آبه لتجارب الماضي الفاشلة».

قال رجب لنفسه محاولاً طرد الهواجس التي غزت ذهنه فجأة. ولعق شــفتيه اليابستين بلسانه وتفل خليطاً من اللعاب المر والغبار ثم نظر إلى الحفرة بتحد وتمتم دون أن يشعر:

- **سأهزمك مهما استعصيت، أجل سأهزمك في النهاية.**

واصل رجب الحفر محاولاً الحجر على أفكاره من الاسترســال في حالة القنوط التي انتابته، نســي نفســه تماماً ولم يعد يفكر في هذه اللحظات إلا في شيء واحد، الحفر. لم تسفر كومة التراب التي أخرجها رجب من الحفرة عن شيّء. كان يمعن النظر في كل حجر من أحجار الحفرة بحثــاً عن دليل الكنز قبل أن يراوغه بالمحفار ليقتلعه من مكانه.

فجأة خفــق قلب رجب خفقات مثل حصــان جموح وهو يحدق شاخصاً إلى قطع من الشِّيد الأبيض المفتت بين تراب الحفرة. تنبهت

لمنظرها كل حواسه كأنما غرس بغتة في كل جذر من جذورها دبوس معدني.

انفرجت أسارير وجهه وضحك بصوت مسموع وهو يلمس قطعة من الشِّيد الأبيض ببنان الإبهام والسبابة:

- آه.. أخيراً، بضع ضربات بمحفاري وينطلق الكنز من عقاله. بضع ضربات ويسعى نحوي طائعاً بعد طول تمنع وعصيان.

قال ذلك رجب بصوت عال ليزيد في اطمئنانه، وهو يشعر أنه يقترب من النهاية السعيدة لقصة عمرها من عمر بؤسه وشقائه. نعم، طوال السنين الماضية كان يتصور أنه يوماً ما سيكسب الرهان وأن السحر سينفك عن الحفرة المغلقة وتسفر له كارهة عن كامل بريق زينتها.

كانت عضلات جسده النحيل تختلج بشدة وهو يهوي بمحفاره الذي بدأ ينزلق ويهوي داخل الحفرة. ألقى المحفار جانباً وجثا على ركبتيه داخل الحفرة ثم شرع يزيح التراب براحة كفيه بحركة أسرع من نبض قلبه المتوثب الذي أحس به كأنه يقفز متمرداً خارج حاجز ضلوعه. استنفر كل حواسه وهو يلمس بباطن أصابعه الجزء اليسير الظاهر من جسم مجهول خارج التراب؛ وصاح بفرح طفولي عندما لمس ببنان أصابعه جسماً دائرياً أملساً:

- الدليل... أقسم أنه دليل الكنز، لابد أنه الحجر الدائري

المنحوت بشكل أملس ووسطه رسم طائر صغير يمسك بمنقاره سنبلة من القمح.

نبش رجب التراب بأظافره من جميع جوانب الجسـم المجهول، وبرزت معالمه من خلال التراب شيئاً فشيئاً. حاول الإمساك به بكفيه وإخراجـه ليتبين معالمـه، وبغتة ندت عن رجـب صرخة ذعر خافتة وأبعد يديه هلعاً. فعل ذلك بشـكل تلقائي وكأنهما لامستا رأس ثعبان قاتل ودبت الرعدة في بدنه كله من قدميه حتى أصول شـعر رأسه. حاول الخروج من الحفرة لكن قدميه تسمرتا في الأرض ولم يستطع الحراك كأنه أصيب بالشلل.

صمتت أغاريد الأمل في رأسـه وطويت مثل ثوب سـمل وتردد رجع نعيب الخيبة بين جنبـات الحفرة. خمدت جذوة أحلامه وهوى نجمها، ورجب أشـبه بأم ثكلى رمست وحيدها مكفناً بكفن لونه من لون تراب الحفرة.

مرت لحظات بطيئة مثل كابوس ثقيل ورجب ذاهل لا يريم مكانه كأنه تمثال من شـمع. فتح عينيه على وسـعهما وحدق في الجمجمة البشـرية الماثلة أمام ناظريه. تحولـت الحفرة إلى دوار رهيب أفقده القـدرة على إدراك كنه هذا الخوف الغريب الذي أطل من داخله ولم يعهده من قبل في نفسـه؛ وتسـاءل في سره عن سـببه، أكان مبعثه منظر الجمجمة التي دحرجتها قبالته فرقاً أصابع كفيه المرتعشة؟ أم كان من هول المفاجأة المذهلة التي لم تكن في حسبانه؟

لقد هصرته المفاجأة وشـعر بنصلها الحاد ينبثق من بين الرميم وينغرس في مقتل الحلم الجميل الذي تشـبث بأذياله؛ ولاحق خطاه مثل طفل سار في إثر أمه بلا تفكير.

سـكنت مخاوف رجب شـيئاً ما ووجد في نفسـه الجرأة ثانية فالتقـط الجمجمة من فوق التراب. قلبها بين كفيه متوجسـاً ونظر إليها بعينين كأنهما اسـتعادتا الرؤيـة فجأة بعد عمى طويل. لم تكن هذه المـرة الوحيدة التي يصافح فيها بصره منظر جمجمة بشـرية؛ غير أنها المرة الأولى التي تشـرب عقله برؤيتها سر من أسرار الحياة خفي على بصيرته في المرات السابقة.

- **لا يملأ عينيي ابن أدم إلا التراب..!**

حقيقـة من حقائق الحياة والموت همهم بها رجب بصوت شـبه مسـموع؛ وفـدت إلى ذهنه وهو ينكـش بإصبعه التـراب الذي ملأ تجويف محجريي جمجمة إنسان مجهول؛ طالما تناهت إلى سمعه في مجالس القرية من الكبار الذين خبروا الحياة، ولم يتسن وقتها لعقله الغارق في متاهات الأحلام إدراك مؤداها.

وخـزات الندم لا تكف عن مهاجمة تلافيـف عقل رجب، وخزا متئـداً تعيد إليها الإحسـاس الذي خدرته الأوهـام التي نصبت في خياله منارة خلبية وأذكت له وميض سراجها فقصد بريقها على غير هدى؛ فإذا سـكنت وخمد لهيبها لم يبصر سـواها وتخبط في دربه

تخبط الأعشى في الليلة الظلماء. الأوهام التي جعلته يعتقد أن حظه مــن الدنيا يغفو داخل الأرض في صندوق ســحري ينتظر ضربة من محفاره العتيد.

كان الإجهاد واضحاً على وجه رجب، واختلطت الأمور في رأسه وهــو يعيد الجمجمة مرة أخرى إلى التراب؛ الجمجمة المجهولة التي أبانت له بصمتها عن ســر خطير من أسرار الحياة، أبانت له عن سر الكنز الحقيقي الذي دفنه عن غير قصد منه في بطن حفرة بحث في جوفها طويلاً عن كنز وهمي وراهن عليها بجزء ثمين من عمره؛ وكلما خســر الرهان مع نفســه قامر على أخرى - وهكذا دواليك - حتى غدت حياته أشــبه بحياة خُلْد أعمى يندفــع دونما اتجاه وهو يحفر تحت الأرض بغير كلل جحوراً متشعبة لا نهاية لها.

لم يخطر ببال رجب وهو يقبع وحيداً داخل قبر مفتوح إلى جوار رميم عظم بشري؛ وفي لحظة حصار اليأس التام لكل مسارب الأمل داخل نفســه أن إنساناً آخر انبثق من داخله لا علاقة بينه وبين رجب الإنســان الذي غلف حياته طوال الســنين الماضيــة بنوع من الترقب الخادع.

لم يدرك رجب أن الســنين تفلتت من عمره رخيصة كما تتدافع حبات اللؤلؤ من قلادة انحل سمطها إلا حين انبثق رجب الآخر.

أعـاد رجب الجمجمة إلى التراب ثانية، التراب الذي منه خلقت وتســاءل في ســره وهو يهيل التــراب فوقها: "من يــدري..؟ الله وحده

obeikandi.com

أعلـم! ربمـا كان أميـراً حاز الدنيا طوع يمينـه.. أو لعله كان فقيراً لم يملك شروى نقيـر.. لافرق.. تراب.. تراب.. لاشيء سوى التراب!

قـــرر رجب في قرارة نفســـه الكف عن الحفر. لـــم يكن قراره بالتوقف عن الحفر القرار البكر في حياته، ولكنها كانت المرة الوحيدة التي عقد العزم فيها على الكف عن الحفر بغير عودة.

خرج رجب مـــن الحفرة، وتحت وقع الـــرذاذ الخفيف الذي بدأ يتساقط عليه هال بكفيه العاريتين التراب داخل الحفرة بعد أن وارى بين ثراها جمجمة إنســـان مجهول وكيساً من الخيش المهلهل بداخله محفاراً ومعزقة وسراجاً نضب زيته.

OpelKandl.com

صدى القصة

حملت إلى قريبي حسن في القرية مسودة قصة (سر الحفرة)، وطلبت منه أن يقرأها، ويكتب لي بعدها تصوراته عن القصة.

وأما سبب اختياري لقريبي حسن بالذات ليكون صدى لهذه القصة، فمرده إلى سببين اثنين:

أولهما، أن لحسن تجربة حياتية مع الحفر تقترب في بعض جوانبها من تجربة بطل القصة (رجب)، وهي ميزة تعطي تصوراته مصداقية أنشدها في صدى القصة.

وثانيهما، أن حسن على درجة مقبولة من الثقافة التي حازها بجهد ذاتي. فهو معروف بين أترابه بنهمه الشديد لمطالعة كل مطبوعة تقع تحت يده، وقدرت أن ثقافته هذه، ستمكنه من ترجمة تصوراته التي سيكونها بعد قراءته للقصة إلى كلام مكتوب على الورق بعد ذلك.

وإليك قارئي الكريم، تصورات قريبي حسن التي وافاني بها، والتي كتبها لغاية في نفسه، على ورقة من أوراق مفكرة سنوية لعام منصرم، وسأنقلها لك من دون أي زيادة في كلامه أو نقصان:

«لقد قرأت هذه القصة وارتسم لي ما بين سطورها – شيئاً

فشـــيئاً - أصدق صورة لمأســـاة الهروب وراء ســـراب خادع من بروق الأماني البائسة. (قد تكون الأحلام جميلة، إنما الحقيقة أجمل).

وتبلغ رحلة الوهم أخيراً منتهاها، وترسو سفينة الأحلام الذهبية على شاطئ الحقيقة وترتطم بصخوره، وتصل إلى لحظة التحول، أو لحظة الصدق مع النفس.

لقـــد كانت تلك الجمجمة بمثابة (نجم القطب) الذي أنقذ الملاح التائه من ضياعه، أم هي صفعة الواقع التي أعادت (لرجب) توازنه.

الضيـــاع في مفاتـــن الحلم، أو اليأس المرير من ســـعي عقيم لا يجدي، أو يقظة العقل في لحظة صدق مع النفس، تلك هي شواطئ بحر الأمنيات الـــذي تاه فيه (رجب) طويلاً حيث كان يحلو له الفرار إليه من واقعه المؤلم.

لقد سلخ شطراً من عمره مبحراً وسط لجته، تدفعه ريح الأماني التي تجري كما تشـــتهي ســـفن أحلامه، جاعلاً مـــن معوله والمعزقة مجاديـــف يناضل بها نضالاً لا معنى له، فتـــارة تداعبه أمواج الآمال الكاذبة، وتارة يبتلعه تيار سعادة وهمية وهو بين هذا وذاك غير شاعر بضياعه.

لقـــد فجع (رجب) بكنزه الوهمي ولكنه عثر على كنز حقيقي من الحكمة.

openkandil.com

عندما قرأت «ســر الحفرة» كانت بالنســبة لي شــاطئ اليقين، حيث قدم الأموات عظتهم للأحياء. وقررت أن أواري بين ثرى حفرتي الخادعة كيســاً مــن الخيش المهلهل بداخله محفار ومعزقة وســراج نضب زيته، وأبدأ من جديد رحلة البحث عن كنزي الحقيقي».

(حسن)

obeikandl.com

obeikandl.com

القصة الخامسة

الشجرة والتابوت

حين يفاجئنا الموت، ويخترق دائرة الأحبة التي تحيط بنا ونتشبث بها، ونفجع بموت حميم ألفنا وجوده بيننا فترة من الزمن، ونشعر أن مصيبة الموت لا تضارعها مصيبة..

فهل يستطيع كلم قصة قصيرة أن يمس شغاف قلبنا المكلوم، وأن يحدث فجوة في جدار الحزن الصلد المحيط بنا، ويقدم لنا العزاء والسلوان..؟

obeikandl.com

obeikandl.com

حينمـــا دلفت من البـــاب الخارجي لبناء الشـــحن والبضائع في مطار دمشـــق الدولي كانت عقارب ساعة المطار قد تجاوزت العاشرة مساءاً بقليل.

فســـحة البناء الخارجية ضمت حشـــداً غير قليل ممن ســـمعوا بالخبـــر الصاعـــق مثلي، وتســـارعوا إلى هنا في توحـــد عاطفي قلَّ مثيله للمواساة والتخفيف من فداحة الفاجعة التي نزلت بقريبنا أبي عماد.

مشيت خلال الفســـحة بخطا مقيد، كانت ضربات قلبي تتوالى فـــي عنف فتثير دوائر من الحزن تســـري في كياني كله، وتنهال عليه سياط لاذعة لاسعة.

الغصة تضغط على صدري وتخنق أنفاســـي مثل كرةٍ في الحلق ضاغطة، شعرت برغبةٍ عارمة في البكاء لكن الدموع تحجرت وبقيت حبيسة المآقي.

لا شيء في منبهاتي الشـــعورية كان ينبئ بتلك النهاية المفاجئة، عبثاً حاولت لملمة شـــتات الأفكار التي هاجمت رأســـي كاليعاســـيب الهائجة.. وعبثاً حاولت أن أكذب على نفســـي وأفند تلك الإشـــارات التي تؤكد النبأ الحزين.

تفحصت وجوه الحاضرين بعينين مسكونتين بتلك الاستغاثة التي تشهد بضعفنا البشري السرمدي حين تطبق علينا الفاجعة بقبضتها

المؤلمة، فلم أشـاهد إلا وجوهاً عابسـة حزينة، تعكس ملامحها وقع الصدمـة الأليم في النفوس التي ذوبها لهيب المصاب، وسـوى بينها، فبدت مثل صورة باهتة لوجهٍ حزين أعيد نسخها مراتٍ ومراتٍ.

الكلمات قليلة ولا تتعدى همس التساؤل، وصمت الانتظار الإرادي انتشرت عدواه بين المحتشدين فلاذ به الجميع دون أي اتفاق.

الانتظار مغمـوس بالترقب الموجـع، ومعاناتنـا تجعل لحظاته طويلـة، بطيئة الخطا، ومع ذلك يسـكب أحياناً في النفس المفجوعة نوعاً من الرحمـة الربانية، فهو يقيها مواجهة الرزء المباغت والتأذي به بشكل مباشر. تمسك كل لحظة من لحظات الانتظار بخيوط غير مرئية تشـد نحوها رويـداً رويداً تأويلاً واهناً يتغلغل عبر مسـارب النفس خلسة، ويقدح بزنده في الخيال تساؤلاً يفزع إليه المفجوع في ضرائه.. ماذا لو..؟! عسـى أن يمسك رمق أقل القليل من الأمل في حدوث المعجزة.

قبالـة البوابـة المغلقة وقف أبـو عماد محاطاً بهالـة من أفراد عائلته بانتظار انتهاء الإجراءات الطويلة لاستلام التابوت.كان منظره الخارجي يبعث على الحزن والأسى. كلت قدماه من الانتظار الممض، وهده التعب وأخذ منه كل مأخذ، فبدا بوقفته المتهدلة، وجسده الذاوي الذي برته المصيبة أكبر من عمره بسنين عديدة. وجهه مغضن شاحب كوجوه الموتى، لم أصدق أن الوجه البشري يشيخ تحت وطأة المصيبة قبل أوانه مثل وجه أبي عماد.

كان يراقب بعينين محتقنتين، مضطربتين في محجريهما البوابة الحديديـة المغلقة، مصيخاً السـمع لكل حركة من داخـل البناء، أو صريـرٍ تحدثه البوابة، وكأن الأمل إلى اللحظـة الأخيرة كان يحدوه على انتظار خـروج أحد ما من البوابة، ليلقي بقميص عماد الأبيض على وجهه الحزيـن، ويخبره أن الدم الذي جاءوا به على قميصه دم كذب.. وأن الخبر الذي جاءوا به من فرنسا خبر كذب.

صمت الانتظار المطبق أخذ شـيئاً فشـيئاً يتحول إلى موجة من التكبير والحوقلة والنشيج المكتوم.. الرؤوس المطرقة بدأت تهتز حزناً وأسفا.. الأقدام المترقبة شرعت حركتها تأخذ اتجاهاً واحداً.

سرت الرعشة في جسدي كله، وتبعثرت الأفكار والخواطر التي كان رأسـي مسـرحاً لها عندما ملأت أذني كلمـة تنبهت لرجعها كل خلية عصبية في دماغي:

- التابوت.. التابوت..

التابـوت الخشـبي القادم من بعيـد تناقلته بالتنـاوب الأكتاف والأيـدي المرفوعة خارجاً من بوابة قاعة الشـحن.. آخذاً مكانه في الفسحة الخارجية للبناء.

الفضاء مـن حولي مغلق على الحزن الذي أطل بزخمٍ شـديدٍ، مفتوح على بوابة وحيدة تفضي إلى التابوت الخشبي الجاثم على بعد خطوات من مكان وقوفي.

تخونني أوصالي التي دب الوهن بها، وشعرت أن الجاذبية تحت قدمـــي من القوة بحيث تمنعني من أن أتزحــزح قيد أنملة.. يا إلهي لحظــات عصيبة أعجز عــن إدراك ما هيتها.. ثمة شــعورٌ غامض تملكني بأنني داخل مركز دوامة غريبة، تبتلعني بدورانها حول نفسها وتلقي بي في غيابة جب عميق.

شــعرت ببرد الوحشـــة يكتنفني، وخيل إلي أنني انســلخت عن الزمــان، وأن المكان أقفر وانفض عنه المشــيعون، وبقيت وحيداً.. لا، لســت وحيداً.. أنا والتابوت الذي أعاد منظره إلى ذاكرتي أســطورة البطــل الملحمي جلجامــش وهو يقف وحيداً يرثــي صديقه الحميم انكيدو:

""انكيـدو صديـق العمـر الـذي خـاض معي غمـار المهالك أدركه مصير البشر.."".

الغلائــل المســدلة التي كانت تحجب الوعي عــن اليقين الكامل انزاحت جميعها بظهور التابوت، وتبدد ذلك التأويل الواهن كســراب بقيعة الخيال. تسربت من خلاله شمس الحقيقة التي حاول تغييبها، الحقيقــة الأخلد في حياتنا والأغرب.. حقيقة الموت.. الحقيقة التي نغفــل عنها غالباً أو نتغافل عنهــا، ولا نبالي بها إلا مقدار اللحظات الســريعة التي نقف فيها خاشعين احتراماً لأحزان أهل الجنازة التي تعبــر الطريق من أمامنا، نتلــوا بلمح البصر بضع دعوات لروح الميت المجهول، وعقلنا منهمك في ترتيب اللحظة الحياتية القادمة.

ولكن حين يفاجئنا المــوت، ويخترق دائرة الأحبة التي تحيط بنا ونتشــبث بها، عندها يبدو لنا موت حميم ألفنا وجوده بيننا فترة من الزمن مصيبة لا تضارعها مصيبة.

صراخ الأخت الكبرى مولولة وهي تندب شقيق عمرها في لوعة وحرقة نبهني من شرودي، وكبح جماح سيل الخواطر المتدفقة:

- يـا أسـفاً عليـك يا عمـاد.. خسـارتنا فيـك لا تعوض يا أخي..

أســند أبو عماد ابنته التي تهاوت على تابوت أخيها، ونظر إليها في عتاب أبــوي عطوف طالباً منها الكف عن النحيب في رنة رقيقة ملأى بالحنان:

- المـوت علينـا حـق يابنتي، والأعمـار بيد الله.. خسـرنا عماد ولا نريـد أن نخسر ثواب الصبر..حسبنا الله في رحيله ولياً ووكيلاً..

حــاول أبو عماد مع ما يكابد من ضنك المعاناة وثقلها، أن يخفي حزنه وأســاه، جالد نفســه وما اضطرم به وجدانه أمــام فاجعته.. فاجعته في بعض منه.. فاجعته في فلذة من كبده.. فاجعته في ولده البكر الدكتور عماد.. عماد الأمل العذب الذي قطر في حياته نبضة نبضة.. سنســميه عمــاد.. لثغ الحروف حرفاً حرفــاً.. درج وتعثر.. مشى ووقع.. تفوق في المدرسة والجامعة على أترابه.. الرداء الأبيض

openkand.com

للطبيب عماد عكس مثل مرآة صافية إشراقة شمس المستقبل الدافئة على وجه أبي عماد، ومسح عن معالمه تعب الأيام الماضية.

بالأمـس القريب كان وعده باللقاء وهو يغادر الأهل إلى فرنسـا لإنهاء السـنة الأخيرة من تخصصه الطبي.. ولم ينكث عماد وعداً.. اليوم عاد.. ولكنه عـاد مكفناً برداء الطبيب الأبيض.. من ذا يصدق أن هذا السبق الخالد في حياتنا بين النقيضين، الأمل والأجل، تتغير نتيجته ما بين شـد وجذب، بأسرع مما يتغير به ديكور مسرحية من عدة فصول ومشاهد.

مثل طفـل صغير حين تفلت من عينيـه صرخة الإدراك الأولى للعالـم من حوله، أصخت السـمع لـكل كلمة من كلمـات أبي عماد الطفحى بمشـاعر الرضا. لدقائق خلت ما كنت أتخيل مأساة بشرية أشـد على الإنسـان من موت شـيء في داخله، وهو مازال على قيد الحيـاة. الآن تأكد لي أن معرفتي بمكنـون النفس المؤمنة في بليتها، معرفة فجة لم يكتمل نضوجها بعد.

خسرنا عماداً ولا نريد أن نخسر ثواب الصبر.. كلمات على بساطتها مست شغاف قلبي، وأحدثت فجوة في جدار الحزن الصلد المحيط بي، ولجت من خلالها حزمة ضياء صافحت وجهي الشاحب، وانتشـرت داخل مسامات نفسي. فذوت مشـاعر الحزن، وأقصيت وخزاتها الموجعة عن سـاحة الشعور، واستبدلها شعور وجداني انبث فجـأة في تضاعيف عقلي الباطـن، وخلق رابطة خفية من التعاطف

مع التابوت الخشــبي القــادم من بعيد في غربته.. شــعور قد يكون منيعاً على حدود مداركنا البشــرية، داخلاً في نســيج الحلم.. ولكنه شعور مشــروع.. رابطة التعاطف في حقيقتها كانت مع تلك الشجرة الوارفة الظلال، التي قامت يوماً ما في غابة من غابات فرنســا على ســوق صلبة.. وفي ذات يــوم مختلف كل الاختلاف عما ســبقه من الأيام.. أحطبت الشــجرة.. وتوجعت بصمت لفراق أشــجار الغابة.. وحزنت الطيور على أغصانها.. وذرفت الشجرة دمعتها الأخيرة، قبل أن تصل إلى ساقها الصلبة فأس حادة تهوي بها زند حاطب لا تخيب ضرباته.. وأصبحت الشجرة قطعة من حطب يبس.. ولكن الستار لم يســدل بسقوط الشــجرة على الفصل الأخير من وجودها.. حنانيك يا رب.. لأن الموت في حقيقته حياة ثانية.. فعندما هوت الشــجرة.. نهض التابوت[١].

---

(١) غدا التابوت الخشبي القادم من فرنسا، بعد دفن عماد - رحمه الله تعالى - وقفاً على موتى المسلمين في مسجد صغير في قرية (الطيبة) في حوران الشام.

obeikandl.com

صدى القصة

توجهت البارحة لزيارة أبي عماد في بيته لتهنئته بسلامة العودة، بعــد أن أكرمه الله تعالى بأداء مناســك العمرة. وحدثني طويلاً عن رحلتــه إلى البلد الحرام، وعن أفــراح روحه أثناء طوافه حول الكعبة وفي سعيه بين الصفا والمروة. وذكر لي ووجهه ينضح سروراً، أنه ورغم متاعبه الصحية أدى مناســك العمرة أيضــاً عن ولده عماد – رحمه الله تعالى – والذي مر على وفاته عام هجري كامل.

وقبل أن أصافح أبا عماد مودعاً، أعطيت مسودة قصة (الشجرة والتابــوت) إلى صغرى بناته الثلاث (خديجــة)، والتي تصغر أخاها عماد بســنتين، وطلبت منها أن تقرأ القصة أكثر من مرة، وأن تكتب بعد ذلك ما بدا لها من المشاعر والأفكار.

وأرســلت لي بعد مدة من الزمن ورقة مكتوبــة، وأعلمتني بأنها أخذتهــا من بعــض الأوراق البيضــاء الباقية في أحــد دفاتر عماد الجامعيــة والذي تحتفظ به ذكرى عزيزة على قلبها من رائحة أخيها الذي سبقها إلى دار البقاء. واعتذرت مني على استحياء لقلة حيلتها في التعبير الأدبي..

وهــا أنا ذا أنقل إليكم أولاً اعتذار(خديجة) على اســتحياء لقلة حيلتها في التعبير الأدبي.. ومن ثم أنقل إليكم كلامها بتصرف بسيط في بعض المواضع..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد الذي بعثه الله رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أشهد بأنك اللهم لا علم إلا ما علمتنا ولا فهم إلا ما فهمتنا ولا كلام إلا ما أرشدتنا وألهمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

فخير كلام أبدأ به هو قول رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى). فقد كنت أول من تلقى هذه الصدمة فأنا الشقيقة الصغرى للراقد داخل التابوت وداخل هذه القصة المؤثرة.

لابد في البداية من التعريف بنفسي، اسمي خديجة، أصغر أخي عماد -رحمه الله تعالى- بسنتين. كنت أول من تلقى عبر الهاتف خبر وفاة أخي الدكتور عماد في فرنسا. وشعرت بعدها بثقل مسؤوليتي لتبليغ الخبر لكل من والدي ووالدتي وأختي المتزوجة والمقيمة في تونس، وهي الأخت الكبرى التي جاء ذكرها في القصة.

ونقلت الخبر أولاً إلى والدي الذي هزه الخبر كثيراً، ومع ذلك تمالك مشاعره وطلب مني أن أهيئ والدتي بالتدريج لتلقي الخبر. فقد كانت والدتي مصابة بمرض في القلب بعد فجيعتها بوفاة أختي الكبرى وهي في الثالثة والعشرين من العمر تاركة خلفها

طفلين أكبرهما كان يبلغ حينئذ العام والنصف. فقد كان مطلوباً مني تحريض الإيمان لدى أمي لخمســة أيام متواصلة ليــلاً ونهاراً حتى يصل التابوت من فرنسا.

وشــعرت بأن لدي مهمة سامية فقد كان علي رغم حداثة عهدي بالحجاب الشــرعي، وبالنهج الذي يرضي اللــه تعالى، أن ألعب دور الداعية، فيا رب أســألك الحســنى، فكان أول دعــاء قلته فوراً بعد سماع النبأ: ﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ** ﴾.

وبعد ذلك لا زلت أذكر كيف مر شــريط معاناة رســولنا الكريم أمامي ســريعاً وهو المصطفى من ربه، فقدانه الأب والأم والجد وهو مــا زال طفلاً، وكيف فقد الدعــم المتمثل في العم والزوجة، وها هو يجهد نفســه في الدعوة فيخرج للطائف ينشد الدعم، فيُسلط عليه الســفهاء من القوم، ثم ها هو يتمثل لي يجلس في ظل الشــجرة في عبودية ورقة ليقول في حياء وأدب جم: ""اللهم إن لم يكن بك غضب علــي فلا أبالي"". وقد يقول البعــض بأنها النبوة، ولكن ألم يقل الله ســبحانه وتعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾. فخير الاقتــداء هو هدي محمــد صلى الله عليه وســلم. ويحضرني قول ســيدنا عمر رضي الله عنه: «ما أصابتنــي مصيبة إلا وجدت فيها أربع نعم من الله تصحبها: أنها لم تكن في ديني، ولم تكن أكبر منها، وأنــي أعطيت الرضــا عندما أصابتني، وأني أطلــب الأجر من الله لها».

فأعوذ بالله أن لا أحسن ظني به وقد استودعت أخي عند خالق الرحمة. فهل نخشـــى على موتانا ورحمة الدنيا لا تعدو جزءاً واحداً من تسع وتسعين جزءاً أبقاها عنده.

فأســـأل الله تعالـــى أن يجمعنا وموتانا فـــي عليين، حيث يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

- شقيقة عماد (خديجة) -

olibrary olkandl.com

obeikandl.com

القصة السادسة

البحث عن المتعة

حــين يُكَبَلُ عقل بشــري في غفلة منــه بقيد عــادة مقيتة تمنع إشــراق شمس ذاته عليه..

ترى هل تستطيع قصة قصيرة أن تدق له أجراس الخطــر، وتحفزه على فــك إســار إرادته من بــين براثن تلك العادة؟

obeikandl.com

obeikandl.com

كانت نظراته القلقة تلتهم الشـــارع جيئةً وذهاباً بحثاً عن ضالته في هذا الوقت المتأخر من الليل.

كانت الســـاعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل، وكان المكان ســـاكناً لا حركة فيه، قد خلا من المـــارة، والدكاكين القليلة على طول الشارع أسدل أصحابها أبوابها المعدنية وغلقوها بإحكام.

جاب الشارع حثيثاً وهو يتنقل من رصيف إلى آخر قبل أن يتقدم به الوقت أكثر وعندها تتقلص حظوظه في الحصول على مبتغاه.

بحث بين نفايات الشارع المتناثرة هنا وهناك كمن فقد لتوه شيئاً ثميناً، والتقط عقب (ســـيجارة)، قلَّبه بين أصابعه باشمئزاز، وعندما وجده غير صالح للتدخين نقفه بظفره بعيداً.

كانت جل الدلائل تشـــير عليه بالتوقف عن مســـعاه في البحث داخل فراغ الصمت المطبق من حوله، إذ ليس هناك ثمة بادرة واحدة تبعث على التفاؤل.. وفي اللحظة التي أخذ فيها اليأس منه كل مأخذ، ولاك فـــي عقله قرار التراجع والأوبـــة إلى بيته خائباً، فجأة دق قلبه بين ضلوعه دقات ســـريعة متتاليـــة مثل دقات طبل غجري في عرس شعبي، وفتح عينيه على وسعهما وقد بدا له من بعد في الجزء المظلم من الشـــارع شبح لم يتمكن من أن يتبين ملامحه بوضوح. فخف إليه محاولاً الاقتراب منه مع أنه لم يكن متأكداً هل سيجد عنده بُغيته أم لا؟ وهل سينفك النحس الذي لازمه هذه الليلة أم لا؟

Obeikandi.com

وكأن الشبح أحس أن إنساناً مجهول البُغية يتبعه في هذا الهزيع المتأخر من الليل. ربما يكــون مصاباً بلوثة في عقله.. أو لعله رصده وحيداً وترقب غفلة منه لينقض عليه مســتغلاً الظلام وهجعة الناس من حولهم، فأسرع لا شعورياً محاولا النأي عنه قدر الإمكان.

أســرع هو الآخر في خطوه قبل أن يُغيِّب الشبح ظلا م الشارع، ويختفــي عن نظره وتخبــو باختفائه بصوة الأمــل الأخيرة في رماد انتظاره الممض. اقترب من الشبح كثيراً حتى كاد يحاذيه، تردد بين أن يتجاوز الرجل المسن الذي بدا عليه الارتباك أو أن يتوجه إليه بالسؤال مباشــرة. تنحنح مردداً في جوفه صوتاً شــبيهاً بالسعال حتى يدخل الطمأنينــة إلى قلب الرجل، وينفي ما وقع في باله من هواجس وفزع مــن مطاردة ليلية مجهولة العواقب. تجاوز الرجل قليلا، ووجه بصره أولا إلى أصابعه، ومن ثم إلى جيب سترته، أخذ نفساً عميقاً محاولا تهدئة أنفاسه المتلاحقة والتي كان صدره يعلو معها ويهبط، ابتلع ريقه المالح بصعوبة. اقترب من الرجل، وابتسم في وجهه ابتسامة عريضة، وحياه بصوت منخفض وبأدب جمّ:

- **أسعد الله مساءك أيها العم الطيب...**

نظر الرجل إليه باســتغراب، وبقي صامتاً لم ينبس ببنت شــفة، أحس بالحرج، وضايقه عدم رد الرجل على تحيته، ولكنه لم يفكر في الأمــر طويلاً. وما لبث أن عــاد إلى المحاولة ثانية ظناً منه أن الرجل لم يــدرك مقصده من التحية، ونظر إلى الرجل بعينين يشــع منهما

التهذيب والاحترام، وألان صوته إلى أرفع طبقاته، وسأله بلطف شديد محاولاً اختيار كلماته هذه المرة بعناية أكثر حتى لا يبدو في نظر الرجل سائلاً ثقيل الظل:

- أسعد الله مساءك أيها العم الطيب.. نفدت مني علبة السجائر، والدكاكين مغلقة كما ترى.. هل أجد لديك سيجارة واحدة أعدل بها مزاجي قبل النوم؟

مط الرجل المسن شفتيه، وهز كتفيه وبقي لائذاً بالصمت. ووقع في نفسه أن الرجل ربما به صمم، فلجأ إلى السهم الأخير في جعبته، فلصق إصبعيه الوسطى والسبابة كل منهما بالأخرى، ورفعهما قريبا من فمه بحركة مسرحية إيمائية. تبسم الرجل ابتسامة باردة، ووضع على الأرض كيساً أسوداً كان يحمله بيده، وبدأ يبحث بكلتا كفيه داخل جيوب سترته الخارجية أولاً، وعندما لم يجد ضالته فيهما انتقلت كفاه ببطء شديد للبحث في جيوب سترته الداخلية.

شعر بالنشوة لأن حركته الإيمائية مع هذا الرجل الأصم قد حققت الغاية المرجوة منها، والأهم من ذلك عنده الآن، أن الرجل الواقف أمامه في هذه اللحظة الحرجة مدخن، والدليل على تخمينه هذا، هو بحث الرجل في جيوب سترته عن علبة السجائر ليعطيه واحدة من لفائفها، وبدأ يمني نفسه بأن الرجل ربما كان سخياً وصاحب مروءة فيهب له العلبة كاملة بداعي أنه يحمل علبة ثانية.

لعق شفتيه اليابستين بلسانه، وأطلق العنان لخياله، فثبت السيجارة في فمه، وبلل مقدمتها بين شفتيه، وأشعلها، وجذب نفساً عميقاً منها وبدأ يستعرض في ذهنه بعض الحركات الإيمائية ليختار الأنسب منها للتعبير عن شكره للرجل وامتنانه للفتته الكريمة.

كان يحملق بعينين واسعتين في كفيّ الرجل، ويرصد باهتمام بالغ عملية البحث البطيئة التي يقومان بها داخل جيوب السترة. ولكن كلما طال بحث الرجل كلما استبد به القلق والاضطراب أكثر.

وتلاحقت أنفاسه، وأصبح كله صدراً يلهث، واستبدت به الحيرة وهو يراقب يد الرجل اليمنى وهي تخرج من جيبه شيئاً بدا للوهلة الأولى غريباً ولم يستطع لضعف الإضاءة من حولهما تبينه جيداً، وزاد عجبه أكثر عندما وجده يمسك بذلك الشيء الذي يشبه (الميكرفون) الصغير ويضعه أعلى الرقبة ملاصقاً لمكان حنجرته، وكادت المفاجأة أن تصعقه تماماً عندما بدأ الرجل يتحدث بنبرة بطيئة وغريبة لم تلامس سمعه من قبل، وهي أشبه ما تكون بنبرة الرجل الآلي في فيلم (حرب النجوم):

- لقد استبدلت بهذه (البطارية) السيجارة التي ذهبت بحنجرتي وصوتي منذ زمن طويل!

ومشى الرجل بضع خطوات إلى الأمام توقف بعدها فجأة، ونظر بحسرة بالغة جهة الشاب، وضع (البطارية) ثانية على حنجرته، وهمس له بما يشبه الدعاء:

- عافـاك اللـه من بلواك يـا بني.. صوتك أغلـى بكثير من هذه البطارية البائسة.. صوتك أغلى بكثير..!

تابـع الرجل المســن طريقه بعــد أن ترك الشــاب الباحث عن (سيجارة) وقد أسقط في يده، وحاله لا تغيظ عدواً، ولا تسر صديقاً، ووقف مكانه وكأن على رأســه الطير، وتلمس رقبته بذهول، وتوقفت أصابعه المرتجفة عند نتوء حنجرته وكأنه أحس بوجودها في مكانها للمرة الأولى في حياته.

Obeikandi.com

obeikandl.com

القصة السابعة

كابوس ماسوني

حين ينحصر الاهتمام بالوثيقة التاريخية بثلة قليلة من أهل الاختصاص، الذين يهرعون إليها في مناسبات معينة، ويبسطون حقائقها لفئة محددة من القراء..

فهل تستطيع قصة قصيرة استحضار هذه الوثيقة التاريخية بين سطورها، ونفض غبار النسيان عنها، وتقديمها إلى شريحة واسعة من قرائها بأسلوب فريد يجمع بين المتعة والرسالة الهادفة؟

obeikandl.com

obeikandl.com

أرخى الظلام ســتائره القاتمة على كل شيء من حولي، ولم تُجدِ نفعاً محاولة عينيّ اختراق ظلمة العصاب الأبيض الذي شُــدّ بإحكام فوقهمــا، والرحيــل في خبايا المكان، لاستشــفاف أســراره وإدراك حقيقته.

شعرت أن كل شيء في المحفل كان يحدق إلي بنظره، في الوقت الذي كنت فيه بهذا العصاب عاجزاً عن النظر إلى أي شيء داخل هذا العالم الغريب الذي بدأت للتو الغوص في أعماقه بهياب شديد..

الصمت المطبق لا يقطعه سوى قرقعات بعض سيوف الحاضرين ووقع خطواتنا أنا والرجل الغامض أو (الأخ المرشــد) الذي كنت انفذ تعليماته كما ينفذ الوسيط أوامر الملقن النفسي، وأتحرك بإيحاء منه، وهو يقودني بخطوات محددة جهة الشرق كما تقتضي الطقوس.

وبعد وقت لا أدري طال أم قصر شــدَّ الأخ المرشد على ساعدي، وهمس في أذني بصوت خفيض:

- **توقف هنا.**

وتوقفت عن الحركة مثل دمية من دمى مسرح العرائس، تحركها يــد الممثل حيث تشــاء وتوقفها عن الحركة متى تشــاء.. وتنفســت بشــكل بطيء حتى لا يشوش صوت تنفســي على سمعي الذي أخذ أُهبته لاســتقبال أدنى تواتر لأقــل اهتزاز صوتي في فضاء المحفل.. وفجأة لامس دويٌّ طرقات المحترم الثلاث عظيمات الســمع في أذنيّ

المتحفزتـين، وتردد بعد ذلك رجع صوتـه الأجش بين جنبات المحفل المظلم، ونبه كل عصبون حسي في نسيجي العصبي:

- إخواني، قفوا وجردوا سيوفكم من أغمادها فالمبتدىء سيحلف اليمين في حضوركم.

وجمدت كفي اليسـرى على الفرجار المفتـوح بمقدار ٤٥ درجة والذي دفعه فـي كفي الأخ المدقق طالباً مني تصويب رأسـه المدبب إلى صدري العاري جهة القلب، وبسـط راحة كفي اليمنى على كتاب النظام العام للعشـيرة وترديد القسـم مع الرئيـس المحترم في نبرة قاسية وكأنها ترنيمة بدائية تنبعث من معبد وثني:

- باسم مهندس الكون الأعظم، وبحضور الهيئة الموقرة، أقسم أن لا أبوح بسـر من أسرار المحفل، ما أعرفه الآن، وما سأعرفه فيما بعد. ولن أسمح للآخرين بأن يفشوا بحضوري سراً واحداً من الأسرار، وإلا كنت مذنباً بفضح أسرار طقوسنا. وأعدكم بالمحبة الصادقة لإخواني، ومـد يـد العون لهـم كلما دعـت الحاجة، ولـن أبخل في سـبيل ذلك بآخـر قطرة من دمي. وإذا حنثت بقسـمي فأكـون محتقراً إلى الأبد، ولتنبذني الهيئة الموقرة، وليقطع بعدها لساني وعنقي، ويمزق قلبي وأحشائي ويرمى بها إلى الوحوش الكاسرة عقاباً لي على ذلك.

ثمة شعور غامض تملكني بعد أن رددت اليمين في شبه غيبوبة، وحـرض في داخلي سـؤالاً حائـراً طرق باب ذهنـي المنهك بإلحاح

مثل صفارة إنذار تصفر بشــكل متواصل.. تلك الطقوس المغرقة في ســريتها تحت جنح الظلام.. العصاب.. قرقعة الســيوف.. الفرجار المفتوح.. الدم.. تقطيع الأحشــاء، لا.. لا يمكــن أن يكون هذا الثمن مجزياً للأحلام الطموحة التي طفح بها عقلي، والتي جئت من أجلها إلــى هنا، والتي توهمت بأنني ســأحوزها غنيمة بــاردة بدون مقابل بمجرد دخولي إلى هذا المحفل..!

وهــا أنا ذا الآن أقســمت على تمزيــق قلبي، وتقطيع لســاني وأحشائي، وعلى التضحية بآخر قطرة من دمي إذا حنثت بقسمي.

لا أعلم لماذا اقشــعر جلدي وتقبض جذر كل شــعرة في جسدي عندمــا أفضى بي التفكير إلى هذه العبــارة بالذات.. آخر قطرة من دمي. وبدأت أرددها في أعماقي بصوت غير مسموع.. آخر قطرة من دمي.. آخر قطرة من دمي..

وجمــح بي الخيال بعيداً خارج هذا المحفل المظلم.. وحط رحاله بســرعة البرق داخل حارة اليهود في دمشــق في نهاية القرن التاسع عشــر الميلادي، وتذكرت حادثة من حوادثه التي كنت قد قرأت كتاباً كاملاً عن تفاصيلهــا المرعبة[١].. حادثة ذبح الأب (توما الكبوشــي) وخادمه (إبراهيم إمارة)، وتصفية دمهما لصنع فطير العيد ممزوجاً به.. وبدأت اســتعرض بذهني شريطاً سريعاً من الصور المخيفة التي

(١) فطير صهيون: العماد مصطفى طلاس.

كان بيت آل هراري من اليهود مسرحاً لها ..كان الباب الخارجي للبيت مغلقاً مـن الداخل إغلاقاً محكماً بالمرتـاج.. وعلى الديوان الصغير الموجـود في الدار الخارجية والتي تضم المجرى كان اثنان من اليهود يعملان على تقييد (الأب توما الكبوشي)، وقد وضعوا في فمه خرقة بيضاء، وبعد أن انتهوا من تقييده قذفوا به إلى الأرض، واجتمع حوله سـبعة غيرهم، من اليهود أيضاً، منهم من وقـف يراقب، ومنهم من اشـترك في العملية، وأحضر طبق نحاس مبيض - طَّسّـت - ووضع رقبة (الأب توما) فوق الطبق، وقام الحلاق سـليمان بذبحه بسـكين حادة، بينما أمسـك بعضهم برأسـه، وجلس آخرون على قدميه، في حين قام الباقون بتثبيت جذعه والإمسـاك به حتى لا يتحرك إلى أن يصفى دمه[١].

أشـحت بوجهـي دون إرادة منـي، وكأن ذاكرتـي أحجمت عن استعراض المزيد من الصور المرعبة لتلك الجريمة الشنيعة.. وشعرت بعدها برهبة شديدة، ونهشت عقلي الشكوك والظنون؛ ولسعني سؤال رهيب ومزلزل:

«ماذا لو أن القوم قد استدرجوني بوعودهم وكلامهم المعسول إلى هذا المحفل لممارسة طقس من طقوسـهم السرية الذي يمزجون فيه دمي بفطيرهم الماسوني؟!».

(١) نفس المرجع السابق: ٨٧/ط ٢/١٩٨٦ (بتصرف).

ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ أأنزع العصاب عن عيني وأسلم قدمي للريح طلباً للنجاة؟ أم أدعي لهم بأن نفسي لا زالت أسيرة الشك، وأن قرار قدومي إلى هذا المحفل كان وليداً مُسْبِعَاً لم يكتمل نموه بعد؟

حوار المحترم المتفق عليه سلفاً،مع أحد أعضاء الهيئة الموقرة، والذي تلا طرقاته الثلاث، جذب إلى حين لجام ذلك التصور المخيف، وأعادني من ذهولي، وأخرجني بعض الوقت من هول ظنوني:

- وأنت أحد الأعمدة في هذا الهيكل، وبما أن صبر هذا المبتدىء وتجلده جعلاه ينتصر في هذا العراك القائم بين الخارجي والماسوني، فهل تعتبره أهلاً ليكون بيننا ؟

- نعم أيها المحترم.

يجيب عضو الهيئة على سؤال المحترم بمنتهى الثقة.

- ماذا تطلب له؟

يعود المحترم لسؤال عضو الهيئة من جديد.

- النور.

يرد عضو الهيئة على سؤال المحترم الثاني باقتضاب.

كانت أذني تلتقط الحوار بين المحترم وعضو الهيئة الموقرة كما يلتقط الهوائي صوت محطة إذاعية مشوشة الإرسال.. الكلام يدور عني وأنا عاجز عن الكلام. وخيل إلي أن ساعة طويلة قد مضت قبل

opelkandi.com

أن تتمكن عيناي الزائغتان من استيعاب ضوء الشعلة الباهر المصوب نحوهما، وتمييز الأشياء من حولهما بعد أن رفع الأخ المدقق العصاب عنهما.

ها هــو الرئيس المحترم يتصدر المحفل بملامــح جامدة وكأنها ملامــح دمية من دمى الشـــمع المعروضة في متحف (مدام توســو)، وجهه شاحب كأنه وجه حفار قبور.. توشح بوشاح أزرق محاطاً بإطار أحمر وضعه على كتفه من اليمين إلى اليســار، وفي أســفل الوشاح تآلف فرجار مفتوح مع زاوية على شكل وردة حمراء. وبدا فوق السدة نجم له خمسة رؤوس لماعة ينبعث من كل منها شعاع يملأ الفراغ بين رؤوس النجمة.

وعلى بعد خطوات قليلة مني وسط الهيكل، الذي غص بالحضور بملابســهم الرسمية حســب درجاتهم، تابوت مفتوح وضع في اتجاه الشرق، استحضر منظره المخيف إلى ذاكرتي أسطورة قاطع الطريق الإغريقي (بروكســت)، الذي كان يمدد ضحيته بعد سلبها في تابوت خشبي داخل كهف الموت، وفرصة الضحية الوحيدة للنجاة، أن يطابق حجم جســمها حجم التابــوت، وما عدا ذلك فالموت بطريقة بشــعة ينتظر الضحية.

المواقــف التــي تعرضت لها من لحظة دخولــي إلى هذا المحفل جــاءت مثيــرة ومتتابعة، ولــم تمنح عقلــي أي فرصــة لهضم تلك الطقــوس العجيبة، وللحظة خُيل إلــي أن كل ما يدور من حولي غير

حقيقي.. وكأنني أشـاهد لقطة مرعبة من تلك اللقطات التي تحبس الأنفاس، والتي اشتهرت بها أفلام الرعب للمخرج الإنكليزي (الفريد هيتشكوك).

ولعل أشـد ما أثار خوفي وارتباكي منظر السيوف المشرعة نحو صدري العاري، وأنا أقف مذهولاً لا حول لي ولا قوة بين عامودين من أعمدة الهياكل القديمة انتصبا بدقة وإحكام.

ولـم تدم حيرتي طويـلاً، وجاءني الجواب مـن المحترم بصوته الأجش ذاته، وقد أحس بما يعتمل داخل مساحة نفسي القلقة:

- اعلم أيها المبتدئ أن هذه السـيوف المصوبة إلى صدرك ما هي إلا رمـز، ولـن تهدد حياتك. إنك لا تـرى في هذا المجتمع إلا أصدقاء مستعدين أن يطيروا نحوك في ساعة الخطر، وأن يستعملوا سيوفهم للمدافعة عن حياتك وشرفك.. نكسوا سيوفكم إخواني.

ونكس الحاضرون سـيوفهم، وصوبوا رؤوسها نحو الأرض، بعد أن رفع المحترم المطرقة التي غطيت بقماشـة سـوداء، وطرق طرقة اهتز لها ضوء القنديل الخافت على الطاولة الصغيرة إلى يساره.

سدد المحترم نظره الحاد نحو عيني الزائغتين، وطلب مني تجديد قسـمي بعد أن أمرني بالامسـاك بالفرجار المفتوح باليد اليسـرى، ووضع اليمنى على كتاب النظام العام للعشيرة:

- **هل تعترف بعهدك الأول؟**

- **وهـل تثبـت بخلـوص نية وبـدون مواربـة على اليمـين التي حلفتها؟**

- **وهل تقسم أيضاً بطاعة رؤوساء عشيرتنا في كل ما يأمرونك مطابقاً وغير مخالف لقوانيننا؟**

أســئلة المحترم كانت بالنسـبة لي مثل اسـتقبال أمر بالركض حافيـاً على قطع من الزجاج المنتناثر، أو المشـي ببطء شـديد على صفيح ساخن، أو ابتلاع أسياخ مشتعلة على الطريقة الهندوسية.

وكزنـي الأخ المدقق برفـق، فنبهني من شـرودي، وأجبت بنبرة قاطعة كطلقة الرصاص:

- **لا .. لن أقسم على ذلك.**

ورانت فترة من الصمت.. الصمت الذي يسـبق هبوب العاصفة، وكأن القوم على رؤوسهم الطير من هول المفاجأة. وبدأ الهمس يسري في أرجاء المحفل، وشـيئاً فشيئاً أخذ يتحول إلى موجة من الصخب، مثل لحن نشاز تعزفه بشكل اعتباطي فرقة آلات نفخ نحاسية.

لا أشـك أنها النهاية.. أين المفر الآن؟ بدأت أحدث نفسـي وأنا أجوس بنظري في جنبات المحفل أتفحص وجوه الحاضرين باحثاً في معالمها عن بصيص أمل يعيد إلى نفسي القلقة سكينتها، فلا أشاهد

إلا وجوهاً عابســة، وكأنها وجوه قبيلة من البرابرة توشك أن تنقض على فريستها لتفتك بها..

ظِلٌّ المحترم على الأرض يدنو مني كشــبح الموت.. وجهه محتقن وكأنه جذوة ملتهبة.. ونظراته الشزرة مسددة نحوي كالسياط اللاسعة. رفع المطرقة المغلفة بقماش أســود وهوى بها على نصل السيف الذي أمسكه بيده اليسرى، ومع الطرقة الثالثة تردد صوت الحضور بشكل رتيب وكأنه نغم الحركة الأولى من سيمفونية تشايكوفسكي السادسة التي عزفت في جنازته.. نغم الفالس الحزين الذي تسانده هارمونيات وايقاعات تخفق بالأسى، وتنذر بالويل والثبور:

- **هوزاي... هووووزاي... هوووووزاي...**

كان قلبي يدق بســرعة مثل دقات طبل مــن طبول الحرب عند الهنود الحمر.. وأحسســت بأنني سأســقط بســرعة تفوق ســرعة الســقوط المريب لبرجي التجارة في نيويورك في الحادي عشــر من أيلول (ســبتمبر).. وبــدأت قواي تخور وأنا أحــاول الهروب والنجاة مــن البريق القاتل المنبعث من نصل الســيف وهو يقترب من ناصية رأسي رويداً رويداً.. لابد أن ما يدور من حولي خرافة قديمة مرعبة، اســتيقظت لتوها من ســباتها الطويل.. لا، بل أنا في حالة احتضار، والموت مني قاب قوســين.. فينشــق فمي عن صرخة مدوية أودع بها حياتي الدنيا.

انتفضت من سريري والفزع يملأ قلبي، وجسدي يتصبب عرقاً، وفتحت عينيّ على سعتهما مرتاعا، وتفلت على يساري ثلاثاً، واستعذت بالله من شياطين الإنس والجن، وسألته الهداية وسداد الرأي.

لقد أنقذني نور الصباح من كابوس مرعب حوّم فيه طيف الموت قريباً مني وألقى بظلاله القاتمة على روحي الهائمة في الحلم.

وكان أول ما وقع نظري عليه هو كتاب: «إ. ف. ي. بيجون: الماسونية التاريخ والمعاصرة» ملقى جانب السرير، بعد أن لازمني بالأمس حتى اللحظات الأخيرة التي استسلمت فيها للنوم. وكأنه يغريني بكابوس جديد، فهل أقبل الدعوة.. وليس على النائم من حرج فيما يرى في نومه.. أم على النائم حرج...!؟

obeikandl.com

قبل أن نفترق..

قارئي الكريم.. سـعدت كثيـراً بصحبتك من خـلال مجموعة القصص هذه (في انتظار معجزة).. والتي حاولت فيها كسـر الرتابة والخروج على الأسـلوب المتبع في طريقة تقديم الرسالة المهمة لهذا اللـون من ألوان الكتابة الأدبية، وإخراج كتـاب المجموعة القصصية من غلافه الأول إلى غلافه الأخير، على شـكل وجبة أدبية، خفيفة، وشهية، والأهم من ذلك، مفيدة.

لن أدعي لنفسـي الابتكار والإبداع، أو الإتيان بما لم تسـتطعه الأوائل، ولكن، إن لاقت هذه المحاولة في نفسك القبول، وكانت سبباً في إقبالك برغبة على قراءة هذه القصص، وشَـوَّقَ أولها إلى سماع آخرهـا.. وامتزج بعد ذلك نبض حروفها مع نبض شـريان حياتك.. فقد وصلت الرسالة.. وآتت المحاولة أُكُلَها المرجوة..

وإلى لقاء قريـب، ومجموعة قصص جديدة.. أسـتودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

عدنان

Obeikandi.com